فهرس

أُحْلِفُ باللهِ كلَّ مَنْ بلغتْه هذه الأوراقُ
أَنْ يُشيعوها في جرائدِهم، وسيَجْزِيهم العَلِيم الخَلاقُ

بسم الله الرحمن الرحيم
نحمده ونصلي على رسوله الكريم

"اللِّواء".. وآيَةٌ مِنَ السّماء

قد اعترض علينا صاحب "اللواء"، عفا الله عنه وغفر له خطأه الذي صدر منه من غير عزم الإيذاء. قال: وردَت إلينا نشرة باللغة الإنكليزية متضمنة آراء المسيح الذي ظهر في بعض البلاد الهندية، وادعى النبوة، وادعى أنه هو عيسى، ليجمع الناس على دينٍ واحدٍ وليهديهم إلى سبيل التُّقى. وإنه زعم أنّ التطعيم ليس بمفيد للناس، واستدل بآيةٍ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنا﴾، فانظروا إلى سقم هذا القياس.

ثم بعد ذلك قال صاحب اللواء: إن هذا المدعي يزعم أن ترك الدواء هو مناط التوكل على واهب الشفاء. وليس الأمر كذلك..

فإن الاتكال على الله تعالى هو العمل بمقتضى سنّته، التي جرت في خليقته، وقد أُمرنا في القرآن أن ندرَأ الأمراض والطواعين بالمداواة والمعالجات، ولا نجد فيه شيئا مما قال هذا الرجل من الكلِم الواهيات. بل الاتكال بالمعنى الذي يظن هذا المدعي هو عدم الاتكال في الحقيقة، فإنه خروجٌ من السنة الجارية الـــمَحْسوسةِ المشهودة في عالَـــم الخَلْق، وخلافٌ لآية: ﴿لا تُلْقُوا بِأَيدِيكُم إلى التَّهْلُكَة ﴾*.

هذا ما قال صاحب "اللواء" وما تَظنَّى. فالأسف كل الأسف عليه أنه اعترض قبل أن يُفتّش وتَجنَّى. ولما قرأتُ ما أشاعَ وأَمْلَى، قلتُ: يا سبحان الله! ما هذا الكذب الذي على مِقْوَله جرَى؟ وإني ما تفوهتُ قطُّ بهذا فكيف إليّ هذا القول يُعزَى؟ يطلبني في نياط وأنا على بساط، ويُبيّن ما فُهْتُ به بصورة أُخرى.

فأقول: على رِسْلِك يا فتى.. ولا تَعْزِنِي إلى قولٍ ما أتعزَّى. ومن حُسْن خصائل المرءِ أن يُحققَ ولا يعتمد على كلّ ما يُروى. فاتق الله يا من يُجرّح جِلْدتي ويُشهّر منقصتي، وتعال أقصّ عليك قصتي، واسمع مني معذرتي، ثم اقض ما أنت قاض، واخْطُ خطوة

* البقرة:١٩٦

التقى، واسلُكْ سبيل التقوى، ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ولا تتبع الهوى.

إني امرؤ يكلّمني ربي، ويُعلّمني من لدنه، ويحسن أدبي، ويوحي إلي رحمة منه، فأتّبع ما يُوحى، وما كان لي أَنْ أترك سبيله وأَخْتارَ طُرقًا شَتّى. وكلّ ما قُلتُ قلت من أمره، وما فعلت شيئًا عن أمري، وما افتريت على ربي الأعلى، وقد خاب من افترى.

أتعجب من هذا؟ فلا تعجب من فعل القدير الذي خلق الأرض والسَّماوات العُلى، وإنه يفعل ما يشاء، ولا يُسْأل عما قضى. وعندي منه شهادات كثيرة، وإنه أرى لِي آياتٍ كُبرَى، وله أَسْرارٌ في أنباء وحيه الذي رزقني ورُموزٌ لا تُدركها عقول الورى. فلا تُمارِني في ترك التطعيم، ولا تكن كمثل من أغفل الله قلبه فاتّخذ أسبابه إلـــهًا وكان أمره فُرُطًا. ولكلٍّ سببٍ إلى ربّنا المُنْتهَى، ويَفْنى السبب بعد مراتب شتَّى. ثم تأتي مرتبة الأمر البحت لا يشار فيه إلى سبب ولا يومى، ويبقى الله وحده وتُقْطَع الأسباب وتُمحى. وليس للأسباب إلا خطواتٌ، ثم بَعْده قدرٌ بَحْتٌ لا يُدْرَك ولا يُرى، وخزائن مخفية لا تُحَدّ ولا تُحْصى، وبحرٌ لا

ساحل له، ودَشْتٌ نَطْناطٌ لا يُمْسَح ولا يُطْوى. أعُطِّلتِ القدرةُ البحتُ وبقي الأسباب؟ تلك إذا قسمة ضيزى!

أَلا تعلم كيف خلق الله آدم وعيسى، وتتلو ذكرهما في القرآن ثم تنسى؟ أنسيت قصة الكليم وفلق البحر العظيم، إِذْ أَجاز البحر وأُغرِقَ فرعون اللئيم؟ فبَيِّنْ لنا أي فُلْكٍ كان ركِبه موسى؟ وما قص الله هذه القصص عبثًا بل أودعها معارف عُظمى، لتَعلمُوا أَنّ قدرة الله ليستْ مُقيّدةً في الأَسباب، وليزداد إيمانكم وتفتح عيونكم وتنقطع عروق الارتياب، ولتعرفوا أن ربكم قديرٌ كاملٌ ما سُدَّ عليه باب من الأبواب، ولا تنتهي قدرته ولا تبلَى. ومن أنكر سعة قدرته وقيّدها بسببٍ لقلة فطنته فقد خرّ مِن ذُرَى الصدقِ وهوى، وكان خروره أَصعب وأَدْهى. فلا تسُبّ الذين يتركون بعض الأسباب بأمر الله الوهّاب، ولا تُقيِّدْ سنن الله في دائرةٍ أضيق وأغسى.

اعلم أن الأسباب أصل عظيم للشرك الذي لا يُغْفَر، وأنها أقرب أبواب الشرك وأوسعها للذي لا يحذر، وكم من قوم أهلكهم هذا الشرك وأردى، فصاروا كالطبعيين والدهريّين، يضحكون على الدّين متصلفين ومستكبرين، كما تشاهد في هذا الزمان وترى.

ولا نمنع من الأسباب على طريق الاعتدال، ولكن نمنع من الانهماك فيها والذهول عن الله الفعّال، ومَن تمايل عليها كل التمايل فقد طغى. ثم مع ذلك إن كان ترك الأسباب بتعليم من الله الحكيم، فهِيَ آية من آيات الله الجليل العظيم، وليس بقبيح عند العقل السليم، وقد سمعتَ أمثالها فيما مضى.

واعلمْ أن لأولياء الله بعضَ أفعال لا تدركها العقول، ولا يعترض عليها إلا الجهول. أنسيت قصّة رفيق موسى وهي أكبر من قصّتي كما لا يَخْفَى؟ إنّه قتل نفسًا زكيّةً بغير نفس، ومُنِع فما انتهى، وخرَق السفينة وظُنّ أنه يُغرق أهلها وجاء شيئا إِمْرا.

ثم ههنا نكتة لطيفة وهو أنّ الأسباب خُلقت للأولياء، ولو لا وجودهم لبطلت خواص الأشياء، وما نفَع شيء من حيل الأطبّاء، وأنهم لأهل الأرض كالشفعاء، وأن وجودهم حِرْزُهم، ولولا وجودهم لمات الناس كلّهم بالوباء. فليس الدواء في نفسه شيئا، بل يأتي الفضل من السماء، كما قال لي ربي في وحي منه: "لولا الإكرام لهلك المقام"، وإن في ذلك لعبرة لمن يخشى. ثم جرت عادة الله أنّ بعض الناس يُبْتَلون بكَلِمِ أوليائه ولا يتدبرون ولا يفهمون، ويُضل الله بهم كثيرا، ويهدي بهم كثيرا، وكذلك قَدَّر وقضى. ولا

يَضلّون إلا الذين في قلوبهم كبرٌ فهُمْ لكبرهم ينطَحون، ولا يخافون يوم الحساب، ويصرّون على ما يقولون، وما لهم بهِ علم ولا يتّقون، ويسبّون رسل ربهم بغير علم ويعترضون على قولهم الأَخفى. ولا يُهْدَونَ إلى نورهم لِشقْوةٍ سبقت، ولذنوب كثرت، ولمعاصٍ بلغت إلى المنتهى. فلا يَرون إلا عيوبهم ولا يُوفَّقون، ويُغشّي الله أبصارهم لئلا يبصروا، ويُصمّ آذانهم لئلا يسمعوا، ويختم على قلوبهم لئلا يفهموا، فينظرون إليهم وهم لا يبصرون. ذلك بما قدمت أيديهم وبما تمايلوا على الدنيا، وداسوا تحت أقدامهم دَار العُقْبى. يسبّون ولا يظلمون إلا أنفسهم ويُبارِزون الله الأغنى. وإنْ سبُّهم إلا حسرةٌ عليهم وحفرةٌ من النّار، فيقربون الحُفرة ظلمًا وطغوى، ومن دنا منها فقد تردَّى.

يقولون ما رأينا من آية وما رأينا من أمرٍ عجيب.

يا سبحان الله! ما هذه الأكاذيب؟ ما لهم لا يخافون أيام الحسيب؟ وقد رأوا منّي أكثر من مائة ألفٍ آياتٍ وخوارقَ ومعجزاتٍ، فنَسِيَ كل منهم ما رأى. فكيف إذا سُئِلوا يوم القيامة وكُشِفَ ما كتموا، وأتوا ربهم بنفسٍ تتعرَّى؟ وإنّ لعن الصادقين المرسلين ليس بِهَيِّنٍ، فسوف يرون ثمرة ما يبذرون، ويرون من

أُخِذَ ومن نجا. وإن الله يأتي ينقُص الأرضَ من أطرافها، فيُري الفاسقين ما أرى في قرونٍ أُولى. وإن لحوم أوليائه مسمومة، فمن أكلها بالاغتياب والبهتان عليهم فقد دعا إليه الردى. وسيبدي السمّ آثاره، ولا يفلح الفاسق حيث أتى. وإن الله غيور لنفوسهم كما هو غيور لنفسه، فلا يترك من عادى، فانتظروا المدى. وإنّ أَشقى الناس من عاداهم وإن أَسْعدَهم من وَالَى.

وإنّي والله من عنده، وهو لي قائم، فما رأيك أيها العزيز.. أتقبل أو تأبى؟ وما أنكرني إلا الذي خاف الناسَ، أو كان من الذين يستكبرون، أو ما فكّر حَقَّ فكره، فتخلَّفَ مع الذين يتخلّفون، أو لم يصبر على ما ابتلاه به الله، فعثر وصار من الذين يهلكون. ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لا يُفتَنون﴾ وقد ردِف الابتلاء نفوسَهم وأموالهم وأعراضهم، ليعلم الله أنهم كانوا يصدُقون وما كانوا كحَطَبٍ يتشظى.

ثم اعلم أيها العزيز، أني لستُ كرجل يخالف الأسباب من تلقاءِ نفسه ويسلك مسلك الحمقى، بل أعلم أن رعاية الأسباب شيء لا يُتْرك ولا يُلْغَى إلا بعد إيحاء الله الوهاب، وما كان لبشر أن يترك الأسباب من غير وحي انجلى. فلا تعجَلْ عليّ من غير

بصيرة، ولا تجعلني دَرِيّةً لرماحك وغرضًا لعائر يُرْمَى. إنك لا تعلم دخيلة أمري وخَبِيءَ باطني، فليس لك أن تَزْرِيَ قبل أَن تدري، وكذلك من السعداء يُرْجَى.

وقد أرسلني ربّي الذي لا يترك المخلوق سدى. وإنّي واللهِ صدوق وما كُنْتُ أن أتمنّى*، ففَكِّرْ وكذلك من الكرام أتمَنَّى◈، ولا تجادِلْني في ترك التطعيم، وقُلْ رَبِّ زِدْنِيْ عِلْمًا. ولله تصرّفاتٌ في مخلوقه بالأسباب ومن دون الأسباب ويعلمها أولو النهى. بل هذا كاللُّب وذاك كالقشْر، فلا تقنع بالقشر كالقَدريّة، واطلُبْ سرَّ أقداره ليُعْطَى.

إنّ الله يفعل ما يشاء، ولا تُدْركه الأَبْصار، ولا تحدّه الآراء، ولا يحتاج إلى مادةٍ وهَيُولَى. وإنّه قادرٌ على أن يشفي المرضى من غير دواءٍ، ويخلق الوُلْدَ مِنْ غَيْرِ آباءٍ، ويُنْبِت الزّرع مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْقَى. وما كان لدواءٍ أن ينفع من غير أَمْر ربّنا الأَعْلى. يودع التأثيرَ فيما يشاء، وينـــزع عما يشاء، وله الأمر في الأرض والسماوات العُلَى. ومن لم يؤمن بتصرفه التّام، ولم يعرف أمره الذي لم يَأْبَه ذرّةٌ من ذرّات الأنام، فما قدَره حق قدره، وما عَرفَ شأنه وما

* أي أفتري: يقال تمنى أي كذب ووضع حديثا لا أصل له. (الناشر)
◈ أي أرجو. (الناشر)

اهتدى. ومَن ذا الذي حَدَّ قوانينَ قدرته، أو أحاط علمُه بِسُنّته؟ أتعلم ذلك الرجل على الأرض أو تحت الثرى؟

أتقول كيفَ تُبْرَأُ المرضى بغير دواءٍ.. ذلك أَمْرٌ بعيد؟ وقد بَرَأَك الله و لم تكُ شيئًا، ثم يُفني ثم يُعيد، وذاك فعلٌ قد جرى فيك فكيف عنه تحيد؟ فاتق الله ولا تُنكر قدرته العظمى. وإنّ الطاعون تَرمي بشررٍ يُقعِص على المكان، فبأيّ دواءٍ يُرْجى الأمان؟ وإنّ الدواء ظنون، والظنّ لا يغني من الحقّ يا فتيان. أتذكر التطعيم؟ وإنّه شيء لا يغني من لَهَبٍ بسَط جناحه على جميع البلدان، فما عندكم من تدبير يمنع قضاء السماء ويردّ هذا الثعبان. وإنها بليّة ترى القوم منها صَرْعى. وقد ضل الذين زعموا أنهم أحصوا سنن الله وأنهم بقوانينه يحيطون. سبحانه وتعالى عما يصِفون! وإن هم إلا كَالعُمْي أو أضَلُّ سبيلا. بل الحق أنّ سُنّته أَرفع من التحديد والإحصاء، وله عادات، فيخرق بعض عاداته للأحبّاء والأتقياء، ويُبدي لهم ما لا يُتصور ولا يُرى. ولولا ذلك لشَقِيَ طُلابُه، ونُكِّرَ جنابُه، ومات عُشّاقه في الحُجبِ والغشاءِ والعمَى. ووالله لولا خرق العادات لضاعت ثمرات العبادات، وماتت عبادُه تحت مكائد أهل المعاداة، ولصَار المنقطِعون خاسرين في الدنيا والأخرى، ولضاعت نفوسُهم منَ الهِجْران، وماتوا وما لهم عينان، وما كان أحد كمثلهم أَشقَى.

وإنّ الله جَنّتهم وجُنّتهم، وإنهم تركوا له عيشهم وراحتهم، فكيف يترك الحبُّ مَن كان له؟ بل يسعى فضله إلى من مشى. والخلق عُمْيٌ كلّهم لا يعرفون أولياءه، فيعرّفهم بآيات يجلّيها كالضحى. ولو لا ترك العادات.. فما معنى الآيات؟ ألا تُفكّرون يَا وُلْدَ المسلمين وأمّةَ نبيِّنا المصطفى عليه سلامُ الله إلى يوم تَرى الناسَ فيه سُكارى ومَا هم بسُكارَى.

وإنّ إلهنا إِلَهٌ واحِدٌ قَديمٌ أزَلِيٌّ، وقد كفَر مَن شَكَّ وبالسوء تَظنَّى. ولكنه مع ذلك يتجدّد لأَصْفيائه، ويبرُز في حُلَلٍ جديدةٍ لأوليائه، كأنّه إله آخرُ لا يَعْرِفه أحَدٌ من الوَرَى، فيفعَلُ لهم أَفعالاً لا يُرى نظِيرُها في هذه الدنيا. ولا يخرق عادته إلا لِمَنْ خرَق عادته وتزكّى، ولا ينـــزلُ لأحدٍ إلا لِمن نزل من مركب الأمّارة ورَكِبَ الموتَ لابْتغاء الرضَى، وخرّ على حضرته وأحرق جذبات النفس ومحا. وإنّه يُبدِّل عاداته للمُبدِّلين، ويتجدّد للمتجددين، ويهَب وجودًا جديدا لمن فنَى. وهذا هو المطلوب لكل مؤمن.. ومن لم ير منه شيئا فما رأى. وإنه يتجلّى لِعبادهِ المنقطعين بقُدرةٍ نادرةٍ، ويقوم لهم بعنايةٍ مُبتكرة، فيُري لهم آياتٍ ما مَسَّها أحد وما دنا. وإذا أقبلوا عليه بتضرع وابتهال، سعى إليهم ونجّاهم من كلّ نكال ومِنْ كُلِّ مَن آذى. وإذا اسْتفتَحوا بجُهْدهم وإقبالهم على

الحضرة، قُضِيَ الأَمْر لهم بخرق العادةِ، وخاب كلّ من آذاهم وما اتّقى. وكيف يستوي وليُّ الله وعدوّه.. ألا ترى؟ الذين طحِنتهم رحى المحبّة، ودارت عليهم لِحبِّهم أنواعُ دَورِ المصيبة، فهم لا يُهْلكون. ولا يجمع الله عليهم موتين.. موتٌ من يده وموتٌ من يد عدوّه.. لئلا يضحك الضاحكون، وكذلك مِن بَدْوِ خلقِ العالم قضى. إنْ يُهْلِكهم فهم عباده.. وإنْ ينصُرْهم فما العدوّ وعناده؟ وإنه كتب لهم العزّ والعُلَى. قوم أخفياء تحت ردائه، لا يعرفهم الخلق من دون إدرائهِ، واللهُ يعرفُ ويرى. فيقوم لهم كالشاهدين، ويُري لهم آياتٍ في الأرضين، ويهدي من يبتغي الهدى. ويتجالد لهم العدا، ويخلق لهم أسبابا لا يخلق لغيرهم، ويأمر ملائكه ليخدموهم بإِيصال خيرهم، فينصر عبده من حيث لا يُحْتسب ولا يُتظنّى.

أتلومني لترك الأسباب مع أنني أُمرتُ من رب الأرباب. فلا أعلم على ما تلومني.. ما لك تُبصر ثم تتعامى. وإني ما أمنع الناس من التطعيم، ولا ينفع تركه إلا إيّايَ ومن اتبعني بقلبٍ سليم، وعمِل عملا صالحًا لرضى الرب الرحيم، وانسلخ من نفسه كما تنسلخ الحيّة من جلدها، وبَعُدَ مِن كل إثم وأثيم، أولئك الذين حُفظوا من هذا اللظى. أنسيتَ عجائب أمره تعالى في خلقِ المسيح

وحفظِ الكليم وخلقِ يَحْيى؟ أو تزعَمُ أن ربَّنا ليس بربٍّ كان في قــرونٍ أُولى؟ أتظنّ أنّ موسى عند عبوره من غير السفينة ألقى نفسه وقومه إلى التهلكة؟ ولا بد لك أَنْ تُؤمن بهذه الواقعة، وتقرّ بأنّ موسى ما ركب الفلك وما أوى إلى جَسْرٍ لرعاية الأسباب المعتادة العادية، وتَرَكَ محلّ الأَمَنة وترَك سُنَن الله وعصَى. ففَكِّرْ أيها الذي سللتَ عليّ المُدى، أليس هذا محل الزراية كما أنت عليّ تتزرّى؟ أتعلم كم من سفائن جمَع موسى على البَحْر لرعاية الأسباب؟ فأَخْرِجْ لنا إن كنت قرأت في الكتاب، ولا تَهِمْ في وادي الهوى. ذلك ما عُلِّمْنا من كتاب الله، فلا أَعْلم إلى أَين تتمشَّى، ومِن أين تتلقَّى. ما نَجِدُ في صُحف الله بيانك وما نَرى.

أتعجب مِنْ آيات الله، وكان الله على كلِّ شيءٍ مُقْتدِرا؟ أَلا ترى أنّ نار الوباء مشتعلة، وموت الناس كالقلاص متتابعة، والطاعون في الاقتناص لا يغادر ذَكرًا ولا أُنْثَى؟ فلو كنتُ كذوبًا لأخذني رُعب العقوبة، وما اجترأتُ على مثل هذا عند هذه الطوائف المخدوبة والخليقة المشغوبة، ولو كنتُ متقوّلا ومزوّرا لإراءة الكرامة، ما كانت لي جرأة أن أتفوّه بكلمة عند قيام هذه القيامة. وإنّ غضب الله شديد ترتعد منه فرائص المَلأ الأَعْلَى، وما كان لكاذب أَن يَفْتَري على حضرةِ الكِبرياء، في وقتٍ تُرْمَى النّار

منَ السَّماءِ، ويُقْعَص الناس على المَثْوى، ويُمسي إنسانٌ حيًّا ويصبحُ فإذا هو من الموتى. أَعند هذا القعاص يُفتي العقل أَنْ يقوم أحد كالخَرّاص، ويفتري على قديرٍ يعلم ويرى؟ أليس العذاب قام أمام الأعين وشاع في القُرَى؟ ودُعِيَ الناس من كل قوم لهذا القِرَى؟

وإنِّي **بُشِّرتُ في هذه الأَيّام** مِن ربّي الوهّاب، فآمنتُ بوعده ورَضِيت بترك الأسباب، وما كان لي أَن أَعصِيَ ربي أو أشكّ فيما أَوحى. ولا أبالي قول الأعداءِ، فإن الأرض لا تفعل شيئًا إلا ما فُعِلَ في السماءِ. وإنّ معي ربي فما كان لي أن أفكر فكرا، وإنّه بشّرني وقال: "لا أُبقي لك في المخزيات ذكرًا"، وقال: "يعصمك الله من عنده". وهو الولي الرحمـــن، وإنْ يُعْزَ حُسنٌ إلى سوادٍ فيتراءى الحُسنانِ. هذا ربّنا المُستعَان، فكيف نخاف بعده أهل العدوان؟ فلا تُعيّرني على ترك التطعيم، وإنَّ رَبّي بكلّ خَلقٍ عليمٌ.

ألا تعلم ما جرى على أُمّ موسى إذْ أَلْقت طفلها في البحر وقلبها تتشظّى، وآمنتْ بوعد ربها وما وهَنتْ كمَنْ تظنّى؟ أتعلم بأيّ دواءٍ كان عيسى يبرئ الأكمه والمبروص؟ فتصفَّحِ الفرقان والصحيحَينِ وأَرِنا النصوص، أو أَخْرِجْ لنا كتابًا آخر مِنْ كتُبٍ

أُولى. أتكفيكَ هذه الشواهد أو نأتيك بأمثالٍ أُخرى؟ فَإِنْ فكّرتَ فيما تلوتُ عليك من الأمثال ذكرا، فستعلم أنّك قد بلَغت منّي عُذْرا، هذا.. وسأكشفُ علَيْكَ أمرًا لم تستطِعْ عليه صبرا.

البيان الشافي في هذا الباب وتفصيل ما ألجأني إلى ترك التَّطْعِيْم والتوكّلِ على ربِّ الأربابِ

اعلمْ أنّ موضوع أمرنا هذا هو الدعوى الذي عرَضتُ على الناسِ، وقلت إنّي أنا المسيح الموعود والإمام المنتظر المعهود، حكّمني الله لرَفع اختلاف الأُمّة، وعَلَّمني من لدنه لأدعو الناس على البصيرة. فما كان جوابهم إلا السبّ والشَّتْم والفحشاءُ، والتكفير والتكذيب والإيذاء. وقد سَبُّوني بكل سبٍّ فما رددتُ عليهم جوابهم، وما عبَأتُ بمقالهم وخطابِهم، ولم يزل أمرُ شتمهم يزداد، ويشتعل الفساد، ورأوا آياتٍ فكذّبوها، وآنسُوا علاماتٍ فأنكَروهَا، وصالوا عليّ بمطاعنَ مفتـــرَياتٍ، ومعائبَ منحوتاتٍ، وأغرَوا زَمَعَ الناس عليّ للتوهين، ودعوا النصارى لتأييدهم وغيرهم من أعداء الدّين، وأَفتَى علماؤهم لتكفيرنا، وتوالى الإشاعاتُ لتعييرنا، وقطَع العُلَقَ كلُّ مَن آخَى، ومُطِرْنا حتى صارت الأرض سُوّاخَى، وضحِك علينا سفهاؤهم من غير علم وما اتّقوا خَلاقهم، وكاد أن يشقّ ضحكهم أشداقَهم. ورقّصهم العلماء كقرّاد يُرقِّص

قرده، ويضحِّك مَن عنده، فتبعهم الحُمْقى كالـــمُحرّج* ومشوا خلفهم كالأعرج خلف الأعرج. وما احتفل محفل، وما انتفض مجلس إلا باللّعن عليّ وعلى المبايعين، وتفسيقِ الصالحين. وما اطّلعنا على حلقة منهم إلا وجدناهم صخّابين ولاعنين. وإنا مع أتباعنا القلائل أوذينا من أفواجهم كل الإيذاء، وربما وَقَفْنا بين أنياب الموت مِن مكر تلك العلماء، وسِقْنا بهتانًا وظلمًا إلى الحكّام، وأغرى المكفّرون علينا طوائف زمعِ الناس واللئام، ومكروا كل مكر لاستيصالنا ولإطفاءِ أنوار صدق مقالنا، وصُبّت علينا المصائب، وعادانا الحاضر والغائب، فما تزعزعنا وما اضطربنا، وانتظرنا النصر من القدير الذي إليه أَنَبْنا. وفسّقوني وجهّلوني بالكذب والافتراء، وبالغوا في السّبّ إلى الانتهاء، وإني لأجبتهم بقولٍ حقٍّ لولا صيانة النفس من الفحشاء. وسعَوا كل السعي لأُبْتَلى ببليّة ويغيَّر عليّ نعمةٌ نلتُها من الرحمن، فخُذِلوا في كل موطنٍ ونكصوا على أعقابهم من الخذلان. وكلما ألقوا علي شبكةَ خديعةٍ مخـــترعة، فرَّجها ربي عني بفضل من لدنه ورحمةٍ، وكان آخر أمرهم أنهم جُعلوا أسفل السافلين، وانتصفنا مِن كل خصم مهين، مِن غير أن نرافع إلى قضاة أو نتقدم إلى الحاكمين.

* المحرج: الكلب المروض للصيد. (الناشر)

وأرادوا ذلّتنا، فأصبنا رفعةً وذكرًا حسنًا، وأرادوا موتنا وأشاعوا فيه خبرا، فبشّرَنا ربنا بثمانين سنة من العمر أو هو أكثر عددا، وأعطانا حزبًا ووُلْدًا وسكنا، وجعَل لنا سهولةً في كلِّ أمرٍ، ونجّانا مِن كل غَمْر. وكنت فيهم كأني أتخطَّى الحَيَواتِ أو أمشي بين سباع الفلوات، فمشى ربي كخفيرٍ أمامي، ولازمني في تلك الـــموامي. فكيف أشكر ربي الذي نجاني من الآفات، على كُلولي هذا حسرات.

يا أسفا عليهم.. إنهم لا يفكرون أن الكاذبين لا يؤيَّدون مـــن الحضرة، ولا يتكلمون بكلام البر والحكمة، ولا يُرزَقون من أسرار المعرفة. وهل تعلم كاذبًا شهدتْ له السماواتُ والأرض بالآيـــات البَيِّنة، واضمحلّت به قوة الشيطان وتخافَتَ صوتُه مـــن الســـطوة الحقانية، وطفِق يريد الغَيبوبة كحيّةٍ تأوي إلى جُحْرِها عند رَمْـــيِ الصخرة؟ ثم مع ذلك تدعو ظلمةُ الزمان إمامًا من الرحمن، وقـــد انقضى من رأس المائة قريبًا من خُمْسها، ودنت الملة لضعفها مـــن رمسها وداست الغفلة قلوب الناس وصار أكثـــرهم كـــالكلاب، وتوجّهوا إلى الأموال والعقار والأنشاب، ونسوا حظّهم من ذوق العبادات، وأقبلوا على الدنيا وزينتها وما بقي الدين عنـــدهم إلا كالحكايات. ومن تأمّلَ في تشتُّت أهوائهم، وتفرُّق آرائهم، علِـــم

بالجزم أنهم قومٌ أُغلِقَتْ عليهم أبواب المعرفة، وانقطع صفاء التعلق بالحضرة، إلا قليل من الذين يدعون الله أن يرفع حُجب الغفلة. ولكن كثيرا منهم نبذوا حقيقة التوحيد من أيديهم وما بقي الإيمان إلا على الألسنة. يسُبّون عبدًا جاءهم في وقته ويحسبون أنهم يُحسنون، وختم الله على قلوبهم فهم لا يفهمون. يظنون أنهم على الحق وما هم على الحق، وإنْ هم إلا يخرصون. تجدهم كأُناس رقود، والمتمايلين على الجحود. خُدعوا عن الحقائق بالرسوم، وشُغلوا عن اليقين بالموهوم. إنهم مروا بنا معترضين قبل إيفاء الموضع حقَّه، ورأوا بَدْرَنا ثم أرادوا شقَّه. وإني جئتهم عند الضرورة الحقة، وفساد الأمة، فكانت أدلة صدقي موجودة في أنفسهم ما رأوها من الغباوة، ثم من الشقوة أنهم ما فكروا في رأس المائة البدرية، التي تختص بالمسيح الموعود عند أهل البصيرة، واتفقت عليها شهادات أهل الكشف والأحاديث الصحيحة، وإشارات النصوص القرآنية.

ولما أصروا على الإنكار أقبلتُ على المنكرين، وقلت: عندي شهادات من الله، فهل أنتم من المتقبلين؟ فجحدوا بها واستيقنتْها أنفسهم. فيا أسفا على القوم الظالمين! هنالك تمنّيت لو كان وباء يُنبه المعتدين، وأُوحيَ إليّ أن الطاعون نازل وقد دعَتْه أعمال

الفاسقين. فوالله ما مضى إلا قليل من الزمان حتى عاث الطاعون في هذه البلدان. فعزوه إلى سوء أعمالي، وقالوا: إنا تَطيَّرْنا بك، وضحكوا على أقوالي، وقالوا: إنا من المحفوظين. لا يمسنا هذا اللظى، ولا يموت أحدٌ من علمائنا بالطاعون، فإنا نحن الصالحون وأهل التقى. وأما أنت فستُطعَن وتموت فإنك كَيذُبانٌ. فقلت: كذبتم، بل لنا من الطاعون أمان، ولا تخوّفوني من هذه النيران، فإن النار غلامنا بل غلام الغلمان.

فما لبثوا إلا قليلا حتى زاروا الـــمنون، ومات بعض أجلّ علمائهم من الطاعون، وكنتُ أخبرت بهذا قبل موت ذلك المطعون، فإن شئت فانظر أبياتا من قصيدتي الإعجازية، التي كتبناها في هذه الصفحة على الحاشية❖، وما نظمت تلك القصيدة إلا لهذا الحزب الذي خذلهم الله بتلك الآية، وما خاطبت إلا إياهم إتماما للحجة، بل سمّيتُ بعضهم في تلك القصيدة، لئلا يكون أمري غُمّةً على أهل البصيرة والنصفة. فوالله ما مضى شهر كامل

❖ منقول من صفحة ٥٨ و ٦٣ من كتابي "الإعجاز الأحمدي":

إذا ما غضبنا غاضبَ الله صائلا	على معتد يؤذي وبالسوء يجهَرُ
ويأتي زمـــان كاسرٌ كلَّ ظالم	وهل يُـــهلكنَّ اليومَ إلا المدمّـــرُ
وإني لشرُّ الناس إن لم يكن لهم	جـــزاء إهانـــتهم صغارٌ يصـــغّرُ
قضى الله أن الطعن بالطعن بيننا	فـــذلك طاعون أتاهم ليُبصروا

على هذه الأنباء المشاعة، حتى أخذ الطاعون كبيرهم الذي أغرى عليّ أشرار البلدة. وكانوا آذوني مِن كل نهج وبالغوا في الإهانة، وأشاعوا أوراقا مملوّة من السب والفحشاء والبهتان والفِرْية، ومع ذلك طلب مني ألدُّهم قبل هذه الواقعة آيةً كنت وعدتها للفئة المنكرة، وأشاع ذلك في جريدة هندية يسمى بالفيسة، وما طلب مني تلك الآية إلا بالسخرية. فأراه الله ما طلب، وكان غافلا من الأقدار السماوية. كذلك يتجالد الله قوما يعادون أهل الحضرة، وإن في ذلك لعبرة لأهل السعادة. وما كان لبشر أن يفر من الله، فمن حارب أولياءه فقد ألقى نفسه إلى التهلكة. ومن تاب بعد ذلك فيتوب الله عليهم، فإنه كريم واسع الرحمة. وإن لم يكفّوا ألسنتهم ولم يمتنعوا ولم يزدجروا، ويعودوا ويسبّوا ويعتدوا، فيعود الله إليهم ببلية هي أكبر من السابقة. وإنه يُنـــزل البلايا بالتوالي، ولا يبالي، فتوبوا إليه يا ذوي الفطنة. وما يفعل الله بعذابكم إن تركتم سبل الفحش والمعصية، والله غفور رحيم.

في بيان ما ظهرَ بعد ذلك من الآيات والمعجزات والتأييدات

ثم بعد هذا عَمَّ الطاعون طوائفَ هذه البلاد، ووقع الناس صرعى كالجراد، وافترسهم هذا المرض كالأسد الغضبان، أو كذئب عائث في قطيع الضان. وكم من دارٍ خربت وصال الفناء على أهلها، والأرض زُلزلت وصبّت الآفة على وعرها وسهلها. وما ترك هذا الداء مقاما بل جاب الأقطار، وتقصَّى الديار، ووطّأ البدو والحضر، وأدرك كل من حضر، وما غادر أهلَ حُللٍ ولا أطمارٍ، ودخل كل دارٍ، إلا الذي عُصم من رب غفار. وكذلك حضر أفواج منهم مأدبة الطاعون، ورجعوا بمائدة من المنون، وجاؤوا كأضياف دار هذا الوباء، فقدّمت إليهم كأس الفناء.

فالحاصل أن الطاعون قد لازم هذه الديار ملازمة الغريم، أو الكلب لأصحاب الرقيم. وما أظنّ أن يُعدَم قبل سنين، وقد قيل: عمر هذه الآفة إلى سبعين. وإنها هي النار التي جاء ذكرها في قول خاتم النبيين، وفي القرآن المجيد من رب العالمين، وإنها خرجت من المشرق كما رُوي عن خير المرسلين، وستحيط بكل معمورة من

الأرضين، وكذلك جاء في كتب الأولين، فانتظر حتى يأتيك اليقين. فلا تسأل عن أمرها فإنه عسير، وغضبُ الرب كبير، وفي كل طرف صراخ وزفير، وليس هو مرض بل سعير. وتلك هي دابّة الأرض التي تكلّم الناسَ فهم يجرحون، واشتد تكليمها فيُغتال الناس ويُقعَصون بما كانوا بآيات الله لا يؤمنون، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِن من قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يوم الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾*، فكذلك تشاهدون. وذلك بأن الناس كانوا لا يتقون، وكانوا يشيعون الفسق في أرض الله ولا يخافون، ويزدادون إثما وفحشاء ولا ينتهون. وإذا قيل: اسمعوا ما أنـــزل الله لكم فكانوا على أعقابهم ينكُصون. فأخذهم الله بعقابه هذا لعلهم يرجعون. وترى قلوب أكثر الناس تمايلت على الدنيا فهم عليها عاكفون، وتموجت جذبات نفوسهم وانفجرت منها عيون. وإذا قيل لهم: لا تعصوا أمر ربكم وأطيعوا مع الذين أطاعونِ، وقد أرداكم الطاعون، قالوا: ما أنت إلا دجال، ولم يحيطوا بأمري علما ولم يصبروا كالذين يتفكرون. وقد رأوا آياتِ السماء وآيات الأرض ثم لا يتقون، بل هم قوم يجترئون. وقد بلغ الزمان إلى منتهاه وتبين أكثر ما كانوا ينتظرون، ثم لا ينظرون.

* *الإسراء: ٥٩*

أهذه عَلَمُ الدجاجلة؟ فأرُوني كمثلها إن كنتم تصدقون، أم كنتم أشقياء في كتاب الله فما جعل الله نصيبكم إلا الدجالين. ما لكم كيف تحكمون؟ بل ظهر وعد الله في وقته صدقًا وحقًّا، فبؤسًا للذين لا يقبَلون. قوم لُدٌّ يؤثرون الظلماتِ على النور وهم يعلمون، وكأين من آية رأوها بأعينهم ثم ينكرون. ألم يروا أن الأرض ملئت ظلما وزورا وأن العدا من كل حدب ينسِلون؟

وقال بعضهم: ما رأينا من آية. يا سبحان الله! ما هذه الأكاذيب وتركُ خوف الحسيب؟ وإن فصل القضايا يكون بالشواهد أو الألايا،* فأراهم ربي شواهد من الأرض والسماوات، فعمُوا وصمُّوا وما خافوا يوم المكافاة.

ثم أُقسِم بالله الذي خلق الموت والحياة إني لصدوق وما افتريت على الله وما اتّبعتُ الشبهاتِ، وإني أنا المسيح الموعود والإمام المنتظر المعهود، وأُوحيَ إليّ من الله كالأنوار الساطعة، فأذكّر الناس أيامَ الله بالبصيرة. وبُشّرتُ أن وقت البرد قد مضى، وزمان الزهر والثمار أتى، وكاد أن تنجاب الثلوج وتخرج المروج، وحان أن يُنبَذ الذين انتبذوا الحق ظِهْريًا، وملأوا فيما دوّنوه أمرًا فَرِيًّا،

* *الألايا جمع الألية وهي الحلف والقسم. (الناشر)*

وكان مَرْجُوًّا منهم أن ينبّهوا هممهم، ويوجّهوا إلى التعاون كَلِمَهم، ويساعدوا بما يصل إليه إمكانهم، ويقوم به بيانهم. فخالفونا لا بِسِرٍّ القلب بل بجهر اللسان، وحدّوا أَلْسُنَهم إلى حد كان في الإمكان، كأنهم سباع أو حيوات، وكأن ألسنهم رماح أو مرهَفات.

وما كان جوابهم إلا أن يقولوا إنه دجال من الدجالين، وما تذكروا مَن درَج من المفترين. أَوُضِعتْ لهم قبول في الأرض أو أرى الله لهم من الآي الموعودة للعالمين؟ ومن أراق كأس الكرى، ونصنصَ ركاب السرى، ونظر إلى زمن مضى، فلا يخفى عليه مآل المتقولين. أتعلمون رجلا ورَد حمى الحضرة كالسارقين، ودخَل حرمَ الله كاللصوص الخائنين، ثم كانت عاقبة أمره كالصادقين؟ أتحسبون الافتراء كأرضٍ دَمِثٍ دمَّثها كثير من الخطا، واهتدت إليها أبابيل من القطا؟ كلا.. بل هو سمٌّ زُعافٌ مَن أكَله فقُعص من غير مكثٍ وفنَى. وكيف يستوي رجل خاف مقام ربه فعُلّم من لدنه وأُعطيَ آيات كبرى، ونورا وصلاحا ونُهى، وأُرسلَ إلى خلق الله ليهديهم إلى سبل الهدى.. ورجل آخر يمشي كلصوص في الليل ومال عن الحق كل الميل، وسرَّى إيجاسَ خوفِ الله واستشعارَه، وتسربَلَ لباسَ الافتراء وشعارَه، وقصر همّه على الدنيا

التي يجتنبها ولا يقصد الآخرة ولا يجتليها؟ كلا.. لا يستويان، وللصادقين قد كتب الفرقان.. وعدٌ من الله الرحمن في كتابه القرآن. فلا حاجة لأعدائي إلى أن يشرعوا رماحهم، أو يتقلدوا سلاحهم، أو يكفّروا أو يفسّقوا، فإن هذه كلها من قبيل الفحشاء، وإن الموت منقضٌّ على كل رأس من السماء، فلِمَ يختارون سبيل الأتقياء وما في أيديهم إلا الظن، وقد أهلكَ اليهودَ ظنونُهم من قبل هؤلاء، فكفروا بعيسى ابن مريم وخاتم الأنبياء.

أتنكرونني بمثل هذه الروايات؟ كلا.. بل تعرفون الصادق والكاذب بالعلامات، وكل شجر يُعرَف بالثمرات. أرأيت سارقا وافى بابَ الإمارة، وسرَق مالا بأعين النظّارة، ثم ما أُخذ بعد هذه الغارة؟ فكيف لا يؤخذ من يغيّر دين الله ويقوّض مبانيه، ويحرف بحسب هواه معانيه، ليبرأ المسلمون من الحقّ، ويلحقوا بمن يناويه ويَطمِر كالبَقّ؟ أتظنّ هذا الأمر من الممكنات؟ كلا.. بل هو من المحالات. ولو كان الله لا يغضب على المفترين لضاع الدين، ولم يبق دليل على صدق الصادقين، وارتفع الأمان واشتبه أمر الدين. ولله غيرةٌ كالبحار الزاخرة، والجبال الشامخة، أمواجها ملتطمة، وأفواجها مزدحمة، فيسلّ سيفه على المتقولين، لئلا يتكدر بهم عينُ المرسلين في أعين الجاهلين.

وكل ذلك كتبتُ في الكتب، فردّ العدا ردّ الغضب، فأغلقتُ دونهم الأبواب، وما كلّمتُ أحدا إلا الذي أناب. وكانت أنفاسي متصاعدة لهجوم الحزن، وعبراتي متحدرة تحدُّر القطرات من المزن.

ثم تَسعَّرَ الطاعون ولا كأوائل الزمان، وكان يأكل قرى وأمصارا كالنيران. هنالك أُوحي إليّ مرة أخرى، وقيل: إن الأمان للذي سكن دارك ولازَمَ التقوى. وأما ألفاظ الوحي فهو قوله تعالى: "**إني أحافظ كلَّ مَن في الدار إلا الذين عَلَوا من استكبار**"، وقال: "**إني مع الرسول أقوم، وألوم مَن يلوم، أُفطِر وأصوم**"، وقال: "**لولا الإكرام لهلَك المقام**". وكان هذا في أيام إذ الصخور من الطاعون تتواقع، وبلاياها إلى الخلق تتتابع. وبشّرني ربي بأن هذه العصمة آية لك من الآيات، ليجعل فرقانا بينك وبين أهل المعاداة.

ثم بعد ذلك الوحي الذي نـــزل من الله الكريم، صدر من الحكومة حكمُ التطعيم لهذا الإقليم. فما كان لي أن أعرض عن حكم الرحمن، بل كنت أنتظر آية عند هذا التُّكلان، ليزداد جماعتي إيمانا وليكمل العرفان. وطعَنني على ذلك كلُّ من كان يعبد صنم الأسباب، وقالوا: إن في التطعيم خيرا فكيف تـــترك طريق الخير والصواب؟ فأشعت في كتابي "السفينة" أن الطعن لا يَرِدُ عليّ

إلا بعد المقابلة، وأما قبلها فليس هو من شأن أهل العقل والفطنة. فلو ثبت في آخر الأمر أن العافية كلها في التطعيم، فلست من الله العزيز الحكيم. وكان هذا الإعلان أمرا حفظه الصبيان، وعرفه النسوان، وذُكر في الأندية، وورد مجالس الأعزة، وارتفع به الأصوات في الشوارع والأزقّة، حتى وصل الخبر إلى الحكومة. فتعجّبَ كل من سمع مِن توكلنا في هذه النيران المشتعلة. فبعضهم ألحقوني بالمجانين، وبعضهم حسبوني كَخَرِفٍ فارغ من العقل والدين. فسمعنا قول المعترضين، وتوكلنا على الله المعين، وقلت: لا تعيّروني قبل الامتحان، وانتظِروا إلى آخر الأوان.

وسعى الحكومةُ كل السعي لتـــرفع من الخلق هذه العقوبة، وليلفّف المجانيق المنصوبة، ويقوّض الخيام المضروبة. وما كان هذا إلا نار من السماء، فكلما أرادوا إطفاءها زادت نيران الوباء، وأحاطت بالأقطار والأنحاء. وأنعم الله علينا بالعصمة من هذه النار، وعصم كل مؤمن تقيّ كان في الدار. وما اختتم الأمر إلى ذلك، بل ظهرت مضرة التطعيم بالمقابلة، وزجَّينا الأيام بالخير والعافية. ونرى أن نفصّل هذه المقابلة للنظارة.

تفصيل ما ذكرناه بالإجمال

قد سبق فيما تقدم أن بعض الناس جادلوني في أمر ترك التطعيم، وقالوا أتجعل نفسك من الذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة ويميلون عن النهج المستقيم؟ فالصواب الأخذُ بالاحتياط، وتقديمُ الحيل التي تقدِر بها على درء هذا الداء والإشحاط. فقلت: لا تعجَلوا عليّ، ولا بد لكل مجادل أن ينتظر إلى آخر الزمان، ليُظهر الله أي فريق أقرب إلى العافية والأمان. ولا يُقضَى أمر بإطالة اللسان، بل الحق هو الذي يتحقق عند الامتحان، ومن استعجل بالملامة فيصبح كالندمان، ومن أكل غير فصيح◈ فسيكون ما أكله آفةً على المعدة والأسنان.

وأشعت كل ما قلت في كتابي "السفينة"، وما كان لي أن لا أشيع بعد نزول الوحي والسكينة. وما أعلم رجلا إلا بلغه هذا الخبر، وما أعرف أذنًا إلا قرعها هذا الأثر، حتى إن هذا النبأ وصل إلى الدولة وأركانها، وشاع في كل بلدة وسكانها، وزاد الناس طعنا

◈ *هكذا ورد في الأصل سهوا: والصحيح "نضيج" كما تدل عليه الترجمة الفارسية والسياق وطبعة "الخزائن". (الناشر)*

وملامة، ورأينا مِن ألسُنِهم قيامة. فخاطبتهم وقلت: إنا نحن المنجدون، وإنا نحن بُشِّرْنا وإنا لـمُحْفَظون. فلو لم يصدق هذا القول فلست من الصادقين، وليس كمثلي كاذب في العالمين. وينسِف الطاعونَ لي ربي ولو أنه جبال، وينزِفه ولو أنه سيل مغتال، وإنا أكثر أمنًا وعافية من الآخرين. فانتظروا حتى حين، ثم قولوا ما تقولون إن رأيتمونا من الأخسرين، وإنا سنزجّي الأيام إن شاء الله آمنين.

فما سمع كلامَنا أحد من الأعداء، وضحكوا علينا وسخروا منا وأوذينا كل الإيذاء. وما زلنا غَرَضَ سهامٍ، ودَرِيّةَ رماحِ كلامٍ، حتى أتى الوقت الموعود، وبدا القدر المعهود، وهو أن الطاعون لما تمكّنَ من حصاره، وأحدق بجميع أسواره، أوجست الحكومةُ في نفسها خيفة، وطلبتْ للتطعيم زمرةً حاذقة. فقلت في نفسي إنها فعلتْ كل ما فعلتْ بمصلحة، ولكنها حربٌ بمشيةٍ* مقدَّرة، فإن القيام في جنب قدر الله قعود، والتيقظ رقود، والسعي سكون، والعقل جنون، والرأي خرافة، والإصلاح مفسدة. وكان القوم

---

* *أي أنهم يحاربون مشيئة الله. (الناشر)*

يجهّلوننا ويخطّئون، ويكذّبون بنبأنا ولا يصدّقون. فكنا ننتظر ما يفعل الله بنا وبهم، وكان الناس يتحدثون على رغم ما قلنا لهم.

فلما أُكثِرَ الكلامُ، وقيل: أين الإلهام، إذا فراستي ما أخطأتْ، وكياستي كالشمس أشرقت، وآيتي تبينت، ودرايتي تزينت، ووجوه اسودّت، ووجوه ابيضّت. وما أرخى ربي للمنكرين حبل الإنظار، بل أراهم عاجلا ما أنكروه بالإصرار. وما أبطأ الوقت حتى شاعت الأخبار في مضرّة التطعيم، وقيل إنه يجعَل المرءَ عِنّينًا والامرأةَ كالعقيم، وقيل إنه يذهب بسماعة الآذان ونور الأبصار، وكذلك قيل أقوال أخرى ولا حاجة إلى الإظهار. وبلغتْ أخبار الموتى واحدا بعد واحد، وتواتر الأمر ولم يبق حاجة إلى شاهد. وقيل إن مضرته للناس كالأسد المُصحِر والنمر الموغَر، وإنه أقعصَ في بعض آفاق كالمُبادر إلى ضرب أعناق، وكمثلِ مؤثِرِ القتل على استرقاق، وتوافَقَ تلك الأخبارُ كلَّ وفاق. فلم نلتفت إلى أقوال العامة، ولم نُقم لها وزنا، وإن هذا هو نهج السلامة، وقلنا إن أكثر الأخبار تأتي بالأراجيف، فنصبر حتى ننقُد الأمر كالصياريف، مع أننا سمعنا بآذاننا حكايات في هذا الباب، وروايات لا تُرَدّ ولا تُنسَب إلى كذاب بالاستعجاب. ورأينا العامة عند سماع التطعيم

في الخوف المزعِج والفَرَق المحرِج، ومع ذلك وضعناهم موضع الدوابّ، وما عبَأْنا بهم ولا بأقوالهم كأولي الألباب.

وبينا نحن في هذا الدفع والذبّ، والاستدراك على العامة والسعي والخبّ.. إذ أتتنا جرائد من الحكومة فيها نبأ عظيم، وخبر أليم. فارتعدت الفرائص عند سماعه، وظلَع فرسُ السعي بسِطاعه. فقرأنا الخبر كما يقرأ المحزونون، وقلنا إنا لله وإنا إليه راجعون. وهذا هو الخبر الذي أشعته قبل هذا النعي الأليم، وقلت إن العافية معنا لا مع أهل التطعيم. وإنه آية من الآيات، ومعجزة عظيمة من المعجزات، فنُسَرّ بها ومع ذلك نبكي على الثيّبات الباكيات، واليتامى الذين ودّعوا آباءهم قبل وقتهم بتلك المعالجات. فيا أسفا على يوم عُرضوا فيه للتطعيم، وليت شعري لو أتوني مؤمنين لَحُفظوا من هذا البلاء العظيم.

وما أدراك ما هذه الآفة، ثم ما أدراك ما هذه الآفة؟ فاعلم أن في أرضنا هذه قرية يقال لها "ملكووال"، فاتفق أن عَمَلة التطعيم وافَوا أهلَها مع حزب من الرجال، ودعوهم إلى هذا العمل بالرفق والاحتيال. فقيّض القدر لتتبيرهم وتدميرهم أنهم حضروا تلك العَمَلة، وكانوا تسعة عشر نفرًا عِدّةً، وأما أسماؤهم فاقرؤوا

الحاشية✹، فعرضوا أنفسهم للتطعيم جرأة ليكونوا نموذجا لمن يخشاه شبهة. فلما دخل سم التطعيم عروقهم، صهَر أكبادهم، وأذاب فؤادهم، وخُبطوا قلِقين. ثم لما هجروا تغيرت حواسّهم، وأُترِعتْ من الموت كأسهم، فأصبحوا في دارهم جاثمين. وردّوا أماناتِ الأرواح إلى أهلها◈. ومُلئت البيوت بكاء وجزعا وصارت الأقارب كالمجانين. هناك قامت القيامة في تلك القرية، وارتفعت أصوات النوادب بالكلم المؤلمة، وكلٌّ من كان في القرية سعوا إليهم متعجبين ومتأسفين، وانثالوا إلى بيوتهم موجِفين وباكين. وأما ما مرّ على نسوانهم وصبيانهم، فلا تسأل عن شأنهم. إنهم أسالوا الغروب، وعطُّوا الجيوب، ومزّقوا القلوب، وسعّروا الكروب، وتذكَّرَ كلٌّ حميم الحميمَ، ولعنوا التطعيم، بما رأوا أحياءهم صرعى، وتفجَّعَ كلٌّ من سمع هذه الفاجعة العظمى،

✹ أسماء رجال ماتوا من التطعيم، ونسي المخبر اسم أحد منهم:
١- أمير الدين .. قوم علما، ٢- عمرا تركهان، ٣- جمان كشميري، ٤- جيون شاه سيد، ٥- مهر داد ميراسي، ٦- سلطان موجي، ٧- حيات تركهان، ٨- فتح دين قوم جت، ٩- قاسم شاه سيد، ١٠- إمام الدين قوم جت، ١١- شادي جت، ١٢- حيات جت، ١٣- لدها جت، ١٤- رودا كمهار، ١٥- نور أحمد قوم علما، ١٦- ساون كهتري، ١٧- شب ديال كهتري، ١٨- كربا رام كهتري، ١٩- نسي المخبر اسمَه.

◈ بلغنا بعد هذا أن بعضهم بقوا كمعلَّق بين الموت والحياة إلى عشرة أيام بعد التطعيم، ثم زهقت نفوسهم بالعذاب الأليم. منه

وطارت عقول القربى، وصار نهارهم كليل أعسى. وما كان في القرية رجل إلا انتهى إلى فِنائهم، وتصدى لاستنشاء أنبائهم.

ووالله ما نصّفنا الشهرَ بعد نبأ تقدَّمَ ذكره للطلباء، حتى ظهرت هذه الواقعة من القضاء، وصدّقتْ وحيَ الله وكلَّ ما عثَرتُ عليه من حضرة الكبرياء. ولما اطلعتْ عملة التطعيم على هذه الحوادث الواقعة، بادروا إلى نائب السلطنة، وأسرجوا جواد الأوبة، وبُهتوا مما ظهر من الأقدار السماوية.

وبعد ذلك ثنى الله عنان الحكومة عن الإصرار على هذه الأعمال المشتبهة، بل أنِفت الدولة من شدة كانت في الأزمنة السابقة، وذلك بما ضاعت به نفوس تسعة عشر من الرعية في ساعة واحدة. ومُنع التطعيم بالرسائل البرقية، ثم أُخذ طريقُ الرفق والتُّؤَدة، وتُرك طريقٌ يشابه الجبر في أعين العامة. ولا شك أن هذه الدولة ما آلتْ شفقةً، وما تركت في جهدها دقيقة، وما اختار* التطعيم إلا بعد ما رأت فيه منفعة. والحق أن الأمر كان كذلك إلى أن خالفْناه من وحي السماء، فأراد الله أن يصدّق قولنا وينجينا من ألسن الجهلاء، فعند ذلك أبطلَ نَفْعَ التطعيم، وأحدثَ مضرة

---

* *سقط "ت" هنا سهوا، والصحيح "اختارت". (الناشر)*

فيه، ليُظهِر صدق ما خرج مِن فيه. ولو لم يكن كذلك فكيف كان من الممكن أن يظهر الآية، ويتحقق لنا الحفظ والحماية؟

ووالله إن لم يهلك أهلُ تلك القرية لهلكتُ وأُلحقتُ بالكاذبين، لأني كنت أشعت أن العافية معنا وهذا هو معيار صدقنا عند الطالبين، ولو ظهر عكسه فهو من أمارات كذبي، فليكذّبني عند ذلك من كان من المكذبين. وكانت هذه المصارعة كدَرِيّةٍ في أعين الناس، وكنت كمعلَّق.. إما أن أحيا وإما أن أُقتَل في هذا البأس. فأراد الله أن يغلّبني كما غلّبني من قبل في مواطن، فليس على الحكومة ذنب بل كان آية عند ربي فأظهر وأعلن.

ولا بد من أن نقبل أن هذه الحادثة كانت داهية عظمى، ومصيبة كبرى، وترتعد الفرائص إلى هذا اليوم بتصور هذه الواقعة، ولا نجد مثلها في الأيام السابقة. وما كان بالُ قوم شقّت هذه الفجعةُ جنوبَهم، وكوى الجزع قلوبهم، وكيف كان لطم الخدود وضرب الصدور عند تلك البلوى، إذاما أُلحِقَ في ساعة أحياؤهم بالموتى.

ومع ذلك لا جُناح على الحكومة البريطانية، فإنها اختارت ذلك بصحة النية، بعد التجربة الكثيرة وبذل الأموال لدفع هذا المرض

أكثر مما تبذل الدول الأخرى في مثل هذه المواضع المقلقة لإنجـــاء الرعية. وكذلك لا يعود اعتراض إلى أركان السلطنة، فإن الدولة وأركانها ما كانوا يعلمون ما ظهر من النتيجة. وقد اتّقدت لهـــذه الحادثة أكبادهم، ورقّ فؤادهم، وأَلَّمَهم هذه الداهيةُ وأوجعهـــم هذه المصيبة، بما فجَأ القريةَ بلاء، وما سبق إليه دهاء. ولأجل ذلك فرضت الدولة وظائف لورثائهم، وواسَتْهم مع الأســـف الكـــثير وقامت لإيوائهم، وبذلت العنايات لإرضائهم. وكـــان التطعـــيم عندها في أول أمره كمائدة تتحلّب لها الأفواه، وتتلمظ لها الشفاه، ولكن بعد ذلك أخذتْ بالتوجه التام طريقَ الاحتياط والاحتماء، وأوجبتْ مراعاتَه إلى الانتهاء. وكذلك جرت عادة هذه الحكومة، فإنها تفعل كل ما تفعل بكمال الحزم والتؤدة، وإنها تتعهد رعاياها كالأبناء، ولا ترضى بأمر فيه مظنّة الإيذاء. ولذلك وجَب شكرها بما تساعد مساعدةَ الأمّهات، وأين كمثل هذه الحكومة؟ فـــاطلبوا في الأقطار والجهات. وأرى كلَّ عاقل يثني عليها لمنتّها، ويفـــديها بـــمهجته، وذلك لإحسانها وكثرة حَسنتها. فالحمد لله على هذه النعمة. ولذلك وجب على كل مسلم ومسلمة شكرُ هذه الدولة، فإنها تحفظ نفوسنا وأعراضنا وأموالنا بالسياسة والنصفة. وحـــرام على كل مؤمن أن يقاومها بنيّة الجهاد، وما هو جهاد بل هو أقبح

أقسام الفساد. وهل من شأن فتوّة الإسلام أن تعتاض إحسانَ المحسن بالحسام؟

ثم اعلم أنا لا نتكلم بشيء في شأن التطعيم، بل نعترف بفوائده وبما فيه من النفع العظيم، ونقرّ بأن فيه شفاء للناس، ولا خوف ولا بأس، ولذلك لما شاهدت الحكومةُ أن صول الطاعون بلغ إلى غايته، وهولَه انتهى إلى نهايته، آثرتِ التطعيم على كل تدبير، وأعدّت له الوسائل بصرف مال كثير، واجتهدت في بذل وسعها تفجعًا للخَلق المطعون، لتَغمِد به ظُبَى الطاعونِ. وكان هذا العمل جاريا من سنوات، وما سمعنا مضرّته من ثقات، بل كان أهل الآراء يثنون على هذا الدواء، ويحسبونه أسرع تأثيرا وأدخل في أمور الشفاء. وكان الأمر هكذا إلى أن ألّفتُ كتابي"سفينة نوح"، وخالفتُ التطعيم فيه بأمر الله السبّوح. وقلت إن العافية أصفاها وأبقاها وأبعدَها من العذاب الأليم، هي كلها معنا لا مع أهل التطعيم، فإن لم يصدُق كلامي هذا فلست من الله العظيم. فارتفع الأصوات بالطعن والملامة، وقالوا أتخالف هذا العمل وهو مناط السلامة؟ وأما ما تذكُر من وحيك فهو ليس بشيء وسترجع بالندامة، أو تقيم عليك وعلى من معك عذاب القيامة. وإن العافية

كلها في التطعيم وقد جربه المجربون، فمن عمل به فـــلا خـــوف عليهم ولا هم يُطعَنون.

هنالك رقَّ قلبي، وفاضت دموع عيني، بما رأيت زيَّ الناس غير زيّ المسلمين، ورأيت أنهم يؤمنون بحيل الناس ولا يؤمنون بوعـــد رب العالمين. يـــأوُون إلى أولي التجاريـــب، ولا يـــأوون إلى الله القريب. يأخذون عن الذين يظنون، ولا يأخذون عن الذي تحت أمره الـــمنون. فشكوت إلى الحضرة، ليبرّئني مما قيل وينجّيني من التهمة، وليبكّت المخالفين ويردّ إلينا بركات العافية، ويُبطل عمل التطعيم ويظهر فيه شيئا من الآفة، ويُري الناسَ أنهـــم خَطِئـــوا في التخطية وليعلم الناس أن الشفاء في يده لا في أيدي الخليقة. فلـــم أزل أدعو وأبتهل وأُقبِل على الله ذي الجبروت والقدرة، حتى بانت أمارة الاستجابة وصدَق النبأ المكتوب، واستُنجز الوعد المكذوب. واقتحم التطعيم فِناء الأنام اقتحام الضِّرْغام، ورأى الناسُ مضـــرّتَه بالعينين، ونابَ العيانُ مَنابَ عَدْلَين، وأشرق الحـــق كـــاللُّجَين، وقضينا الدَّين بالدَّين.

هذا أصل ما صنع الدهر في "ملكووال"، وإنْ هـــو إلا تنبيـــه للنفوس الأبيّة من الله ذي الجلال. وكنا أعرضنا عنـــهم إعـــراض

العِلْية عن الأرزلين، ولكن الله أراد أن يفتح بيننا وهو خير الفاتحين.

فاسكُتْ.. عافاك الله.. بعد هذه الآية، ولا تذهب.. أرشدك الله.. إلى طرق الغواية. وحسبُك يا شيخ، ما سمعتَ من اعتذاري، ثم ما رأيتَ من آية جبّاري. وثبت من هذه الآية أن الله يودع التأثير ما يشاء ويسلبه مما يشاء، والأصل أمرُه المجرد، والأسباب له الأَفْياء. والتطعيم – نافعا كان أو مضرّا – لا نبحث فيه بعد ظهور الآية، فإن الإفحام قد انتهى إلى الغاية. وما كان لأحد أن يعزيها إلى نُوَبِ الزمان، فإنها ردِفت نبأَ الرحمن.

وإنها ليست بآية بل آيات، وكلها مشرقةٌ كالشمس وبيّناتٌ. فالأول: نبأٌ أشعتُه قبل ظهور الطاعون وسَيلِه، وقبل أن يجلب برَجِله وخَيلِه. فأغار الطاعون بعد ذلك على الهند كالصعلوك، وأقام الحشر ودكَّ الناس كلَّ الدكوك. والنبأ الثاني: هو وعد تكفُّلِنا ووعدُ العصمة، والأمر بترك التطعيم والرجوع إلى حضرة العزة، ولذلك أطعتُ الأمر ووقفت موقف العبيد، وما كان لي أن آنَف من أمر الرب المجيد. والنبأ الثالث: عيثُ الطاعون في بعض العلماء

من الأعداء، وقد ذكرته ولا حاجة إلى إعادة الإنباء. وكل ما قلتُ أمرٌ مشتهر وعلى الألسن دائر، وكل من خالف فهو الآن حائر.

ومن منن الله أنه وقاني في كل موطن من وصمة طيش السهام، وإخداج الوحي والإلهام. وأما الطبيب فلا يأمَن العِثارَ، ولو شرب من العلوم البحارَ، سيّما التطعيم الذي يُخشَى على الناس مِن أثـر سمّه، والتشخيص ناقصٌ والعقول بـمعزل عن فهمه. وربما يسمع الطبيب من ورثاء مريضه: ويحك ما صنعتَ، والنفسَ أضـعتَ؟ وربما يخطئ الأطباء خطأً عظيما، ويُهدُون إلى المريض عذابا أليما، فيعبر المرضى بحر الدنيا كالسفن الـمواخر، ويموت الواحد منهم بعد الآخر. فعند ذلك يفرّون ويشـدّون سـروجهم المحطوطـة، ويحلّون أفراسهم المربوطة. كذلك في سبيلهم آفـات، وفي كـل خطوة خطيّاتٌ. وإنا نسمع أمثال ذلك في كل طبيـب، جاهـل وأريب. ومن ذا الذي ما أخطأ قط، أو له الإصـابة فقـط؟ وإني قرأت كتبا من هذه الصناعة، واشتقتُ إليها شوق الخبـز عنـد المجاعة، فرأيتها فرسَ البَرازِ، لا طِرْفَ الوِهاد، وعند عُضال زرعها أقلَّ من الحصاد. ثم رُزقتُ رزقا حسنا من وحـي الله اللطيـف الشريف، فوجدتُ الطبّ بجنبه كالكنيف. وإذا جـاءني الـوحي بكماله، وكشَف الدجى بجماله، قلت: يا وحي ربي أهلا وسهلا،

رحُب واديك، وعزَّ ناديك. أنت الذي يهَب للعُمــي العيــون، وللصمّ الكلام الموزون، ويحيي الأموات، ويري الآيات. ما لــك وللطبابة، وإن هي إلا كالذبابة. أنت الذي يصبي القلوب، ويزيل الكروب، وينــزل السكينة، ويشابه السفينة. طوبى لأوراق هــي مرآتك، وواهًا لأقلام هي أدواتك. وصحفُك نشَرتْ لنا أوراقهــا عند كل ضرورة بألطف صــورة، كأنها ثمــرات أو عــذارى متبرجات.

فالحاصل أني وجدتُ كل ما وجدتُ من وحــي الــرحمن.. ونسَأْتُ نِضْوي المجهودَ بسَوطِه إلى أهــل العــدوان. وإن حيــل الإنسان لا تبارز وحي الرحمن، إلا ويغلب الوحي ويهــدّها مــن البنيان. ألم تر كيف فعل ربنا بالمخاصمين؟ ألم يجعــل تطعــيمَهم مُليمَهم وأكرمَنا بالفتح المبين؟ وسمعتم كيف اعتاض النــاس منــه بالراحة النصبَ، وبالصحة الوَصَبَ، وبالحياة الحِمــامَ، وبــالنور الظلام؟ وما زال التطعيم يطرَح بهم كلَّ مطــرَح، وينقُلــهم إلى مصرَع من مسرَح، حتى زهقت نفوســهم وهُــم كالمبــهوت، وأُخرجوا من البيوت، وبقي المدبرون في أعين الناس كــالممقوت. والتطعيم جعَل كلهم في ساعة أمواتا، فصدروا أشتاتا، والــذين لم يموتوا فابتُلوا ببعض عوارضَ، وكانوا كبهائمَ فما تَرَكَ الطــاعونُ

البِكْرَ فيهم ولا الفارضَ. والذين اجتنبوا فهُم طلعوا من مجالس التطعيم طلوعَ شارد، ونفروا نِفارَ آبِدٍ، ما نعلم ما صنع الله بهم.

فهذه فوائد التطعيم، وهذا نفعه العظيم! فلا تنكروا وعد رب كريم، وإنه رحمة وسلام قولا من رب رحيم. وأما التطعيم فكم من بيوت به خلَتْ، وكم من عيون اغرورقت. ما بالُ قرية يبكون يتاماها بذكر الآباء؟ وما ماتوا إلا بسمّ هذا الدواء، والذين شنَّ الغارةَ عليهم الفَناءُ، كان أكثرهم من السنّ في فَتاء. فويل لقرية حُمَّ فيها ما توقعتُه، وظهر ما أشعتُه، وكان أسرعَ من ارتداد الطَّرْف، حتى تغيرت أعينهم وضرَى عليهم الموت كالطِّرْف، وعَنَّ لعَمَلِة التطعيم كربٌ، وما كان إلا بالله حرب. ولما أجالوا فيهم الطرف وجدوهم عرضة للتهلكة، ورأوا الموت يسعى على وجوههم وينادي للرحلة، ورأوا القوم يلحظونهم شزرا، ويُوسعونهم زراية وزجرا، فخرجوا من الأرض وعرصاقما، والطير في وُكناهما، ثم طارت الأرواح، واشتد النياح. فهذا حال تجارب الإنسان، ثم ينكرون وحي الرحمن!

وأي شقاوة أكبر وأعظم من إنكار المرسلين، وسوء الظن بالمؤيَّدين؟ يقولون أنت كاذب! فما لهم إنهم ينبّهوني عني،

ويظنون أنهم أعثَرُ على نفسي مني؟ أم كبُر عليهم قولي: إني أنــا المسيح؟ وما هو إلا حسدُ معاصَرةٍ وإنكار من الحــق الصــريح، فليتّقوا ربهم ولا يتكلموا كشَكِسٍ وقيحٍ. فإنْ أكُ كاذبا فســأُدْرَأُ كالغثاء، وإن أك صادقا فمن ذا الذي يطفئ نوري بحيل الإطفاء؟

ووالله إني أنا المسيح الموعود، ومعي ربي الودود. ووالله إنــه لا يضيعني ولو عاداني الجبال، ووالله إنه لا يتركني ولو تركني الأحبّاء والعيال. ووالله إنه يعصمني ولو أتى العِدا بالمرهَفات، ووالله إنــه يأتيني ولو أُلقَى في الفلوات، فَلْيكيدوا كل كيــد ولا يُمهِلــونِ، فسيعلمون أي منقلب ينقلبون. أيخوّفونني بحيل الأرض ولا يخافون الذي إليه يرجعون؟ أفكلما جاءهم من الآيات فقطعوا عليها بدسٍّ منهم وإلغاءِ الأمر بالشبهات. وما أنكرَ أكثرُ الناس إلا من دواعي الشطارة، لا من مقتضى الطهارة. وسيريهم الله آية فلا ينكرونها، وينــزل نازلة فلا تردّونها.

وإن للناس من الله تعالى على رأس كل مائةٍ نظرةً، فيرسل عبدا من لدنه لإصلاحهم رحمة، فكيف ينسى الله زمانا نــزَفتْ فيــه عيون الهداية، وسالت سيول الغواية؟ وما عنــدكم لطالــبٍ إذا استفاد، سوى الحديث الذي شابهَ الجماد. فذلك هو الهم الــذي

نفى عني الكَرى، وأذاب عظامي وجرّحني بالمُدى. فـأراد الله أن يُحكِم ما شادَه، ويُظهِر الدين وصدقه وسداده. وما كان عادته أن يتعلل بعُـلالة، ويقنَع ببُـلالة، وما هو عندكم فهو أقلّ من بلّة، وغيرُ كافٍ لنَقْعِ غُلّةٍ. فأرسلني ربي لأهديكم إلى الماء الـمعين الغزير، فما لكم لا تعرفون القبيل من الدبير؟ ألا ترون الإسـلام كيف غار ماؤه وغاب ضياؤه، ونـزَفتْ حياضه قبـل أن تُنـوِّر رياضه، وأُحرِقَ بساطه ومُزِّقَ أنماطه؟ فلا قوة إلا بالله! ونشـكو إليه، وننتظر نصره نَصْرَ الـمبغيِّ عليه. ترون هذا الزمـان ثم لا ترون يا فتيان، فهذا إحدى المصائب على دين الرحمن.

ولا أدري لِمَ أقبَلَ الناسُ عليّ إقبالَ مَن لبِس الصفاقة، وخلَـع الصداقة؟ أجئتُهم في غير الأوان، أو عرَضتُ عليهم ما خالف آيَ الفرقان؟ أو قتلتُ بعض آبائهم، فاغتاظوا لسفك دمائهم؟ وقـد أراهم الله لي الآياتِ، وشهِد بالبينات. فمِن بعض الآيـات بليّـة الطاعون من رب العباد، وقد أخبرتُ به و لم يكن منه أثر في هذه البلاد. ومِن بعضها موت بعض العلماء بهذه البقعة، كما كنـت أنبأت بها قبل تلك الواقعة، فصال عليهم الطاعون كراكبٍ تـامِّ الآلات، مغتالٍ في الفلوات. فأخذهم ما يأخذ الأعزلَ مِن شاكي السلاح، والجبانَ مِن كَمِيٍّ طاعنٍ بالرماح. ومنها ما نصَرنا ربُّنا في

أمر التطعيم، وجعَل العافيةَ حظًّنا عند البلاء العظيم. وكان التطعيم في أول الأمر شيئا عليه يثنى، والشفاء به يرجى، ثم لما خالفتُه بوحي من الرحمن، ظهر ما ظهر من عيبه ولم يبق صورة الاطمئنان. وكنت أعلم أن الله سيُظهر لنا بآية منه فيها نموذج العافية، ولكني ما كنت أعلم أنه يري هذه الآية بهذه السرعة. فظهرت الآية وجُعل التطعيم كسجلٍّ يُطوَى، وذِكرٍ يُنسَى. ثم بدا للحكومة أن يعيده بتبديل يسير وامتحان يوصل إلى اليقين، ولكن أكثر الناس ليسوا بمطمئنين، بما رأوا موتَ تسعة عشر وأناسا آخرين من المؤوفين.

وليس سبب الطاعون فأرٌ تخرُج من قعر الأرض إلى الفِناء، بل سببه سوءُ الأعمال وارتكاب الفسق والمعصية بترك الحياء. فظهر الطاعون وأردَى بني آدم وبناتِه وردِفتْه الآيات، وذلك بأن علاج أمراض المعصية وأنواع الجرائم والجذبات، ليس سوى المعجزات والآيات. ولا يؤمن أحد بالله حقًّا إلا بعد هذه المشاهدات، ولا يمنع النفسَ من المعاصي كَفّارةٌ، بل نفوسُ عبيدِها بالسوء أمّارةٌ، وإنما يمنعها معرفةٌ تامّة مرعِدة، ورؤيةٌ منذرة مخوِّفة، ثم تأتي سلطنةُ المحبة وتضرب خيامَها على القلوب، وتطهّرها من بقايا الذنوب. ولكن أول ما يدخُل قرية النفسانية، ويُفسِد عماراتها ويجعل أعزّتها

كالأذلّة، هو خوف شديد ورعب عظيم من الحضرة، يستولي على القوى البشرية، فيمزقها كل ممزق ويُبعِد بينها وبين أهوائها ويزكّي كل التزكية. وليس من الممكن أن يتطهر إنسان من غير رؤية الحيّ الغيور، ومِن غير اليقين الذي يقوّض خيام الزور. وليس رؤيتُه تعالى في دار الحُجُب إلا بالآيات، وإن الآيات تُخرِج الإنسان من الظلمات، حتى يبقى الروح فقط وتعدم الأهواء، ويبلغ مقاما لا يبلغه الدهاء، ولا يدخل أحد ملكوتَ السماء إلا بعد هذه الرؤية وكشف الغطاء.

فالحاصل أن النجاة من الذنوب لا يمكن إلا برؤية الله بأصفى التجليات، ولا يتحقق هذا المقام لأحد إلا برؤية الآيات. ومن لم ير الرحمنَ في هذا المَراح فما رأى، والموتُ خير للفتى من عيشه عيش العمى. وإنما الدنيا وزينتها لهوٌ ولعبٌ لا تُغَرّ بها السعداءُ، بل هم يؤثرون كل موت لعلهم يرون ربهم.. فأولئك هم الأحياء. وإن الدنيا ملعونة فمن طلَبها فكيف يُرحَم؟ فأَلْجِمْ فرسَك قبل أن يُلجَم. ما لكم لا تتقون الذنوب التي هي أصل هذا الوباء؟ فلا أعلم ما أمّنكم من قدر السماء. وإني جئت كالصبا بِريّا هذه البشارة، فمن تبعني حقا وعمل صالحا فسيُحفَظ من هذه الخسارة.

ولن تكفي أحدا أن يبايعني فقط من دون الأعمال وصفاء التعلـــق بالله ذي الجلال، فغيِّروا ما بأنفسكم ليغيّر ما قدّر لكم من نكال.

أتكذّبون بغير علم ولا تختمون على شفاهكم؟ كبُرتْ كلمـــةً تخرُج من أفواهكم! وقال بعض العدا: إني أعليتُ هذا الرجل، وإني أفرطتُه ثم إني سأحطُّه. فانظروا إلى هذا الكذب والاستكبار، وإن الله لا يرضى عن عبد إلا بالصدق والانكسار. ثم انظروا كيـــف كذّبه الله وأجاب قبل جوابي، وجمع بعد ذلك أفواجا على بـــابي، وملأ بيوتي من أصحابي. وإن في ذلك لآية للمستبصرين، وعـــبرة للمستعجلين.

أم غضبوا عليّ بما قلتُ إن عيسى مات، وإني أنا المسيح الموعود الذي يحيي الأموات؟ ولو فكروا في القرآن لما غضبوا، ولو اتقوا لما تغيّظوا. وإن موت عيسى خير لهم لو كـــانوا يعلمـــون. وإن الله آتاهم مسيحا كما آتى اليهود مسيحا، مـــا لهـــم لا يفهمـــون؟ سلسلتانِ متماثلتان فما لهم لا يتدبرون؟ يقولون سيكون فئة مـــن هذه الأمة يهودا وعلى خلقهم يُخلَقون، ولا يعتقدون بأن يكـــون المسيح الموعود منهم بل هذا الفخرَ إلى اليهود ينسِبون! أأُعطُـــوا نصيبا من شر اليهود وما أُعطوا حظا من خيرهم؟ ساء ما رضوا به

لأنفسهم وساء ما يحكمون! بل كما أن اليهود منا كذلك المسيح الموعود منا، وليست هذه الأمة أشقى الأمم ليصحّ ما يزعمـــون. يقولون هذه هي العقيدة التي ألفينا عليها آباءنا.. ولو كان آباؤهم من الذين يخطئون. ما لهم يصرّون على ما فهموا ولا يتركون؟ أم لهم أَيمانٌ على الله أنه لا يفعل إلا الذي هم يقصـــدون؟ ســبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

يسمّون المسيح حَكَمًا ثم أنفسهم يحكُمون. أم رأوا في القـــرآن ما يزعمون؟ فليُخرِجوه لنا إن كانوا يصدقون. يا أسفا عليهم! إن يتبعون إلا الظن وليس الظن شيئا إذا خالفه المرسلون. بل يحكُمون أنفسهم في الله ورسله ويجترئون، ويصرّون على ما ليس لهم بـــه علم ولا يخافون. ومن العجب أنهم ينتظرون الحَكَمَ ثم يقولون إنهم من الزلل لمحفوظون! ولا يريدون أن يتركوا قولا من أقوالهم.. فما يفعل الحَكَمُ إذا جاءهم، فإنهم بزعمهم في كل أمر مصيبون.

وإن ظهور المسيح من هذه الأمة، ليس أمر يعسِر فهمُه علـــى ذوي الفطنة، بل تظهر دلائله عند التأمل في المقابلة، أعـــني عنـــد موازنة السلسلة المحمدية بالسلســـلة الإســـرائيلية. ولا شـــك أن سيدنا.. سيد الأنامِ وصَدْر الإسلام، كان مثيلَ موسى، فاقتضـــت

رعايةُ المقابلةِ أن يُبعَث في آخر زمن الأمّة مثيلُ عيسى. وإليه أشار ربنا في الصحف المطهرة، فإن شئتم ففكـــروا في ســـورة النـــور والتحريم والفاتحة. هذا ما كتب ربنا الذي لا يبلغ عِلْمَه العالمون، فبأي حديث بعده تؤمنون؟ وإنه جعلني مسيحه وأيـــدني بآيـــات كبرى، وعُطِّلت العِشارُ وترون القِلاصَ لا يُركَـــب عليهـــا ولا يُسعى. ورأيتم، يا معشر الهند والعرب، كســـوفَ القمـــرَينِ في رمضان، فبأي آيات ربكما تكذّبان؟ أم تـــأمركم أحلامكـــم أن تحسبوا الظنون كأمر منكشف مبين؟ ولقد كان لكم عبرة في الذين آثروا الظنون من قبل على اليقين، وما آمنوا بالمرســـلين. فكـــان إنكارهم حسرات عليهم، وإذا أُيِّدَ الرسلُ فودُّوا لو كانوا مؤمنين. ولقد ضرب الله لكم أمثالهم في القرآن فاقرؤوها كالمتدبرين. فويل للذين يقرؤونها ثم لا يفهمون، ويمرّون بها غافلين. عسى ربكم أن يريكم ما لا ترونه، ويُردِف رأيَكم صونَه، فتكونوا من المبصرين. فلا تيأسوا من رَوح الله ولا تستعجلوا، واصبروا وهو خير لكم إن كنتم متقين. وإن صبرتم فتبصرون ويبلغ فكركم محلَّه، وتُكرَمـــون بعد المذلة، فتكونون من العارفين.

وكنتم تقولون لو نـــزل المسيح في زمننا لكنّا ناصرين. فهـــذا نصرُكم.. أنكم تكفرون وتكذبون من غير علم ولا برهان مبين.

ترون آياتِ الله ثم تكذبون مستكبرين، كأن لم تروها، ولا تكلّمون إلا مستهزئين. وتشتُمون وتسبّون، ولا تخافون يوم الدين. وإن تتّبعون إلا الظن، وما أحطتم بما قال الله وما وافيتموني طالبين. أتريدون أن تطفئوا نور الله؟ والله متم نوره ولو كنتم كارهين. ولقد سبقتْ كلمتُه لعباده المرسلين، إنهم من المنصورين. ويل لكم ولأحلامكم! لا تعرفون الوجوه، ولا ترون رحمة تتابَعَ نزولها، ولا تسألون ربكم مبتهلين.. ليُريكم الحق وينجيكم من ضلال مبين.

أيها الناس.. لا تتّكئوا على أخباركم، وكم من أخبار أهلكت المتّبعين. وإن الخير كله في القرآن، ومعه حديث طابَقَه في البيان، والذين يبتغون ما وراءه فأولئك من العادين. ولولا هذا المعيار لماجَ بعض الأمّة في بعضها بالإنكار، وفسدت الملة في الديار، واشتبه أمر الدين على المسترشدين.

أيها العباد.. اتقوا يوما لا ينفع فيه إلا الصلاح، ومن تركه فلن يلقى الفلاح. اتقوا يوما يجمع الكفّار والفجّار، ويقول الفاسقون وهم في النار: ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدّهم من الأشرار؟ فينادي منادٍ من السماء: إنهم في الجنة وأنتم في اللظى. وتحضُر كل

نفس حضرةَ الله ذي الجلال، ويجاء بكل نبي وأعدائهم، وتعرف كل أمة إمامها، ويظهر ما له من قرب وكمال، فيقال: أهذا ملعون أم هذا دجال؟ يوم يكشِف الله عن ساقه ويُري كلَّ مجرم عقابا، ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا! أيها الإنسان! ما أنت وما مكائدك؟ أتعصي الله وينقضّ على رأسك صائدك؟

اليوم كلّمني ربي وخاطبني بكلمات، فنكتبها فإن فيها آيات، فتلك هذه يا ذوي الحصاة: "جاءني آئلٌ واختارَ، وأدار إصبعه وأشارَ: يعصمك الله من العدا، ويسطو بكل من سطا". ثم خاطبني ربي وقال: "إن آئل* هو جبرئيل، وهو ملَكٌ مبشّر من رب جليل".

إني فرغت الآن من الجواب، وبقي ما آذيتَ من العتاب، فإنك ذكَرتَني بألفاظ التحقير، وما اتّقيتَ حسيبك عند الازدراء والتعيير. يا – عافاك الله – من أنت بهذا الطبع المستشيط، وجَمَعَ السلاطةَ

* لفظ "آئل" مشتق من الإيالة، يقال: آله أي ساسه وأصلحه. وإنه اسم جبرئيل في كلام الله الجليل. وإن تسمية جبرائيل بـ "آئل" تسمية ما رأيناها في كتاب قبل هذا الإلهام. فلله كلمات لا تُحصَر بالأقلام. ولعله إشارة إلى منصب جبرائل، وهو الإصلاح وإعانة المظلومين بالسياسة وذبٍّ العدا بالحجة والدليل. منه

مع اللسان السليط؟ كنت لا تعرفني ولا أعرفك، ولا تعلمني ولا أعلمك، ثم آذيتَ وما صبرت، وتركتَ التقوى وما حذرت.

أيها العزيز.. اتّقِ الخبير الديّان، وقد ردِف كلَّ سوءٍ الحُسْبانُ. وقد نزل المسيح من السماء، والطاعون من الأرض أتى، فإذا لم تتوبوا اليوم فمتى؟ فاعلموا أن هذا أوانُ رفضِ الكبر والخيلاء، لا وقت الرعونة والغفلة والاستهزاء. وإن الله غضب غضبا شديدا على الذين رضوا بعيشة الغفلة، وآثروا الدنيا وزينتها ولا يؤمنون إلا بالألسنة، فأذكّركم بأيام الله.. فاتقوا الله يا ذوي الفطنة.

وليس هذا الوقت وقت الغَزاةِ وتقلُّدِ الرماح والمرهفات، بل أمرني ربي يا معشر هذه الأمة أن تتقلدوا بسلاح التوبة والعفّة، فإن النصرة كلها في هذه العُدّة. وإن الأرض ملعونة ممقوتة لكثرة الخطيّات، ولتركِ الله والتمايلِ على الخزعبيلات. وليس الوقت وقت السيوف والأَسِنّةِ، بل أوان تزكية النفوس وثَنْيِ الأَعِنّةِ. فإن الفساد كما دخل قلوب أعداء هذه الملة، كذلك دخل قلوب المسلمين من غير التفرقة. فلن يغلِب الأشرارُ أشرارًا آخرين بغَزاة، بل بعفّة وتقاة، فلن ينصر الله ملوك الإسلام مع وهنهم وغفلتهم في الدين، بل يغضب غضبا شديدا ويؤثر الكافرين على المسلمين.

ذلك بأنهم نسوا حدود الله ولا يبالون أمر ربهم وليسوا من المتقين. يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعض، ولا يُشيعون الحق بل يَعيشون كالمنافقين.

هذا بالُ أهل الزمان، ثم ينكرون ويكذبون بعبد بُعِثَ من الرحمن. أَعَجِبوا أن جاءهم منذر منهم في وقت فقَد الناسُ فيه حقيقة الإيمان؟ أم يقولون افتراه وقد رأوا آياتي ثم ألقوها وراء حجب النسيان؟

أيها الناس.. أرأيتم إن كنتُ من عند الله وكفرتم بي.. فأي خُسْرٍ أكبر من هذا الخسران؟ أتريدون أن أضرِب عنكم الذكرَ صفحًا بعد ما أُمرتُ للإنذار؟ وما كان لمرسَل أن يكلّمه الله ويأمره ثم يخفي أمر ربه خوفا من الأشرار. فاتقوا الله، ولا تقدّموا بين يديه ولا تصرّوا على الظن كل الإصرار.

ذكرُ نُبَذٍ من عقائدنا

إنا مسلمون.. نؤمن بكتاب الله الفرقان. ونؤمن بأن سيدنا محمدًا نبيُّه ورسوله، وأنه جاء بخير الأديان. ونؤمن بأنه خاتم الأنبياء لا نبي بعده، إلا الذي رُبِّيَ مِن فيضه وأظهرَه وعدُه. ولله مكالمات ومخاطبات مع أوليائه في هذه الأمة، وإنهم يُعطَون صبغةَ الأنبياء وليسوا نبيّين في الحقيقة، فإن القرآن أكملَ وَطَرَ الشريعة، ولا يُعطَون إلا فَهْمَ القرآن، ولا يزيدون عليه ولا ينقصون منه، ومن زاد أو نقص فأولئك من الشياطين الفَجَرة.

ونعني بختم النبوة ختم كمالاتها على نبينا الذي هو أفضل رسل الله وأنبيائه، ونعتقد بأنه لا نبي بعده إلا الذي هو من أمّته ومن أكمَلِ أتباعه، الذي وجد الفيضَ كله من روحانيته وأضاء بضيائه. فهناك لا غير ولا مقام الغيرة، وليست بنبوة أخرى ولا محلَّ للحيرة، بل هو أحمَدُ تجلّى في سَجَنْجَلٍ آخرَ، ولا يغار رجل على صورته التي أراه الله في مِرْآة وأظهَرَ. فإن الغيرة لا تهيج على التلامذة والأبناء، فمن كان من النبي.. وفي النبي.. فإنما هو هو، لأنه في أتمّ مقام الفناء، ومصبَّغ بصبغته ومرتدى بتلك الرداء، وقد

وجَد الوجودَ منه وبلَغ منه كمالَ النشوّ والنماء. وهذا هو الحق الذي يشهد على بركات نبينا، ويري الناسَ حُسْنَه في حُلل التابعين الفانين فيه بكمال المحبة والصفاء، ومن الجهل أن يقوم أحد للمِراء، بل هذا هو ثبوت من الله لنَفْيِ كونِه أبتَرَ، ولا حاجة إلى تفصيل لمن تدبَّرَ. وإنه ما كان أبا أحد من الرجال من حيث الجسمانية، ولكنه أب من حيث فيض الرسالة لمن كمّل في الروحانية. وإنه خاتم النبيين وعَلَمُ المقبولين. ولا يدخُل الحضرةَ أبدا إلا الذي معه نقشُ خاتمه، وآثار سنته، ولن يُقبَل عمل ولا عبادة إلا بعد الإقرار برسالته، والثباتِ على دينه وملته. وقد هلك من تركه وما تبِعه في جميع سننه، على قدر وُسْعِه وطاقته. ولا شريعةَ بعده، ولا ناسخَ لكتابه ووصيته، ولا مبدِّلَ لكلمته، ولا قَطْرَ كمُزْنتِه. ومن خرج مثقالَ ذرّة من القرآن، فقد خرج من الإيمان. ولن يفلح أحد حتى يتّبع كلَّ ما ثبت من نبينا المصطفى، ومن ترَك مقدار ذرة من وصاياه فقد هوى. ومن ادّعى النبوة من هذه الأمة، وما اعتقد بأنه رُبّيَ من سيدنا محمدٍ خيرِ البريّة، وبأنه ليس هو شيئا من دون هذه الأسوة، وأن القرآن خاتم الشريعة، فقد هلك وألحَقَ نفسه بالكفَرة الفجَرة. ومن ادعى النبوة و لم يعتقد بأنه من أمته، وبأنه إنما وجَد كلَّ ما وجَد من فيضانه، وأنه ثمرة من بستانه، وقطرة من تَهْتَانِه،

وشَعْشَعٌ من لمعانه، فهو ملعون ولعنة الله عليه وعلى أنصاره وأتباعه وأعوانه.

لا نبيَّ لنا تحت السماء من دون نبيّنا المجتبى، ولا كتابَ لنا من دون القرآن، وكلٌّ من خالفه فقد جرّ نفسه إلى اللظى. ومن أنكر أحاديثَ نبينا التي قد نُقِدتْ ولا تُعارض القرآن، فهو أخو إبليس وإنه ابتاع لنفسه اللعنة وأضاع الإيمان. وإن القرآن مقدَّم على كل شيء، ووحيُ الحَكَمِ مقدَّم على أحاديث ظنية، بشرط أن تطابق* القرآنَ وحيُه مطابقة تامة، وبشرط أن تكون الأحاديث غيرَ مطابقة للقرآن، وتوجد في قصصها مخالفةٌ لقصصِ صحفٍ مطهّرة. ذلك بأن وحي الحَكَمِ ثمرةٌ غَضٌّ وقد جُنِيَ مِن شجرة يقينية، فمن لم يقبَل وحيَ الإمام الموعود، ونبَذه لروايات ليست كالمحسوس المشهود، فقد ضل ضلالا مبينا، ومات ميتة جاهلية، وآثر الشك على اليقين ورُدَّ من الحضرة الإلهية.

ثم إن كان من الواجب الأخذُ بالروايات في كل حال.. ففي أي شيءٍ رجلٌ يقال له حَكَمٌ من الله ذي الجلال؟ فكيف أعطيه هذا اللقب مع أنه لا يحكُم في مسألة من المسائل، بل يقبَل كل ما

* *هكذا ورد في الأصل سهوا، والصحيح: "يطابق". (الناشر)*

عند العلماء كالمستفتي السائل؟ فعند ذلك لا يستقيم لقبُ الحَكَمِ لشأنه، بل هو تابع للعلماء ومقلّد لهم في كل بيانه.

ونعتقد بأن الصلاة والصوم والزكاة والحج من فرائض الله الجليل، فمن ترَكها متعمدا غيرَ معتذر عند الله فقد ضل سواء السبيل.

ومن عقائدنا أن عيسى ويحيى قد وُلدا على طريق خَرْقِ العادة، ولا استبعادَ في هذه الولادة. وقد جمع الله تلك القصتين في سورة واحدة، ليكون القصةُ الأولى على القصة الأخرى كالشاهدة. وابتدأ مِن يحيى وختَم على ابن مريم، لينقُل أَمْرَ خرق العادة من أصغر إلى أعظم.

وأما سرّ هذا الخَلق في يحيى وعيسى فهو أن الله أراد من خلقهما آية عظمى. فإن اليهود كانوا قد تركوا طريق الاقتصاد والسداد، ودخل الخبث أعمالَهم وأقوالهم وأخلاقهم وفسدت قلوبهم كل الفساد، وآذَوا النبيين وقتلوا الأبرياء بغير حق بالعناد، وزادوا فسقا وظلما وما بالَوا بَطْشَ ربّ العباد. فرأى الله أن قلوبهم اسودّت، وأن طبايعهم قسَتْ، وأن الغاسق قد وقَب، ووَجْهَ المهجّة قد انتقَب. وفسدت التصوّرات كأنها ليل دامس، أو

طريق طامس. وجاوزوا الحدود، ونسوا المعبود، وتسوّروا الجدران، ونسوا الديّان. وكانوا ما بقي فيهم نور يُؤمنهم العِثار، ويُري الحق ويُصلِح الأطوار، وصاروا كمجذوم انجذمت أعضاؤه، وكُرِهَ رُواؤُه. فإذا آلتْ حالتهم إلى هذه الآثار، لعنهم الله وغضب على تلك الأشرار، وأراد أن يسلب من جرثومتهم نعمةَ النبوة، ويضرب عليهم الذلة، وينـــزع منهم علامة العزة. فإن النبوة لو كانت باقية في جرثومتهم، لكانت كافية لعزّهم، ولَمَا أمكنَ معه أن يشار إلى ذلّتهم. ولو ختم الله سلسلة النبوة العامة على عيسى، لما نقص من فخر اليهود شيء كما لا يخفى، ولو قدّر الله رجوع عيسى الذي هو من اليهود، لرجع العزّة إلى تلك القوم ولنسخ أمر الذلة، ولبطل حكم الله المعبود. فأراد الله أن يقطع دابرهم، ويجيح بنيانهم، ويُحكِم ذلّتهم وخذلانهم. فأولُ ما فعل لهذه الإرادة هو خلق عيسى من غير أب بالقدرة المجردة. فكان عيسى إرهاصًا لنبينا وعَلَمًا لنقل النبوة، بما لم يكن من جهة الأب من السلسلة الإسرائيلية. وأما يحيى فكان دليلا مخفيا على الانتقال، فإن يحيى ما تولّد من القوى الإسرائيلية البشرية، بل من قدرة الله الفعّال. فما بقي لليهود بعدهما للفخر مَطرَحٌ، ولا للتكبر مَسرَحٌ. وكان كذلك ليقطع الله الحِجاجَ، وينقّص التصلفَ ويسكّن العَجاجَ.

ثم بعد ذلك نقل النبوة من ولد إسرائيل إلى إسماعيل، وأنعم الله على نبينا محمد وصرَف عن اليهود الوحيَ وجبرائيلَ. فهو خاتم الأنبياء لا يبعث بعده نبي من اليهود، ولا يردّ العزّة المسلوبة إليهم، وهذا وعد من الله الودود. وكذلك كُتب في التوراة والإنجيل والقرآن، فكيف يرجع عيسى، فقد حبَسه جميعُ كتب الله الديّان؟ وإن كان راجعا قبل يوم القيامة.. فلا بد من أن نقبل أنه يكذِب إذ يُسأل عن الأمّة في الحضرة، ففكِّرْ في قوله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلتَ للناس...﴾* ثم فَكِّرْ في جوابه، أصَدَقَ أم كذَب بناء على زعم قوم يرجعونه مِن وسواسِ الخنّاس؟ فإنه إن كان حقا أن يرجع عيسى قبل يوم الحشر والقيام، ويكسِر الصليب ويُدخل النصارى في الإسلام، فكيف يقول إني ما أعلم ما صنعتْ أمّتي بعد رفعي إلى السماء؟ وكيف يصح منه هذا القول مع أنه اطّلـــع على شِرك النصارى بعد رجوعه إلى الغبراء، واطلع على اتخاذهم إياه وأمَّه إلـــهَينِ من الأهواء؟ فما هذا الإنكار عند سؤال حضرة الكبرياء إلا كذبا فاحشا وترك الحياء. والعجب أنه كيف لا يستحي من الكذب العظيم، ويكذِب بين يدي الخبير العليم! مع أنه قد رجع إلى الدنيا وقتَل النصارى وكسر الصليب

* *المائدة:١١٧*

وقتل الخنـــزير بالحُسام الحسيم. وما كان مكَث ساعة كغريب يمرّ من أرضٍ بأرضٍ غيرَ مقيم، ولا يفتش بالعزم الصميم، بل لبث فيهم إلى أربعين سنة، وقتَلهم وأسَرهم وأدخلهم جبرا في الصراط المستقيم. ثم يقول: لا أعلم ما صنعوا بعدي.

فالعجب كل العجب من هذا المسيح وكذبِه الصريح! أنؤمن بأنه لا يخاف يوم الحساب ولا سوط العقاب، ويكذب كذبا فاحشا يعافه زَمَعُ الناس، ويرضى بزور يأنَف منه الأراذلُ الملوّثون بالأدناس؟ أيجوّز العقل في شأن نبي أنه رجع إلى الدنيا بعد الصعود إلى السماء، ورأى قومه النصارى وشِركهم وتثليثهم بعينيه من غير الخفاء، ثم أنكر أمام ربه هذه القصة، وقال: ما رجعت إلى الدنيا الدنيّة، ولا أعلم ما بالُ قومي مُذْ رُفعتُ إلى السماء الثانية؟ فانظروا أي كذب أكبر من هذا الكذب الذي يرتكبه المسيح أمام عين الله في يوم الحساب والمسألة، ولا يخاف حضرةَ ربِّ العزة؟

فالحاصل أنه لما منَع القرآن نـــزولَ المسيح من السماء في الآية التي هي قطعية الدلالة، تَعيَّنَ إذًا من غير شك أن المسيح الموعود ليس من اليهود بل من هذه الأمة. وكيف وإن اليهود ضربت عليهم الذلة؟ فهم لا يستحقون العزة بعد العقوبة الأبدية. فاعلموا

أن خيال رجوع عيسى يشابه زبدًا، وأن محبوس القرآن لا يرجع أبدا.

ثم إذا فُرض رجوعه فيستلزم هذا كَذِبَ سيّدِنا خيرِ البريّة، فإنه قال إن المسيح الآتي يأتي من الأمّة. وليس من الأمّة إلا الذي وجد كماله من فيوض المصطفى، ولا يوجد هذا الشرط في عيسى، فإنه وجد مرتبة النبوة قبل ظهور سيدنا خاتم الأنبياء، فكماله ليس بمستفاد من نبينا ﷺ، وهذا أمر ليس فيه شيء من الخفاء. فجعلُه فردا من الأمة جهلٌ بحقيقة لفظ "الأُمّة"، وخلاف لكتاب حضرة الكبرياء. فلا شك أن إدخاله في الأمة كذب صريح وترك الحياء. ففكِّرْ في ذلك إن كنت من أهل الاتقاء.

والحاصل أن الله سلب من اليهود بعد عيسى نعمة النبوة، فلا ترجع إليهم أبدا في زمان خير البرية. وكون عيسى من غير أبٍ وبلا ولدٍ دليلٌ على ما مر بالدلالة القاطعة، وإشارةٌ إلى قطع تلك السلسلة الإسرائيلية. فلا يجيء نبي من اليهود لا قديم ولا حديث في دَور النبوة المحمدية، وعدٌ من الله ذي العزة. وكما نـــزَع النبوةَ منهم كذلك نزع منهم ملكهم وغادرهم الله كالجيفة. وكان تولُّدُ يحيى من دون مسّ القوى البشرية، وكذلك تولُّدُ عيسى من دون

الأب وموتُهما بدون ترك الورثة علامةً لهذه الواقعة. وأما المسيح المحمدي فله أب ووُلْد من العنايات الإلهية، كما كُتب أنه "يتزوج ويولد له" من الرحمة، فكانت هذه إشارة إلى دوام السلسلة المحمدية وعدم انقطاعها إلى يوم القيامة.

وعجبتُ كل العجب من الذين لا يفكرون في هذه الآيات، التي هي لنبوة نبينا كالعلامات، ويقولون إن عيسى تولَّد من نطفة يوسف أبيه، ولا يفهمون الحقيقة من الجهلات. ومن المعلوم أن مريم وُجدتْ حاملا قبل النكاح، وما كان لها أن تتزوج لعهدٍ سبق من أمها بعد الإجحاح. فالأمر محصور في الاحتمالين عند ذوي العينين: إما أن يقال إن عيسى خُلق من كلمة الله العلام، أو يقال – ونعوذ بالله منه – إنه من الحرام. ولا نجد سبيلا إلى حمل مريم من النكاح، فإن أُمّها كانت عاهدت الله أنها يتركها◈ محرَّرةً سادنة، وكانت* عهدها هذا في أيام اللِّقاح. وهذا أمر نكتبه من شهادة القرآن والإنجيل، فلا تتركوا سبيل الحق والفلاح. هذا لمن استوضحتْه فطرتُه، ولا تقبَل خارقَ العادة عادتُه. وأما نحن فنؤمن

◈ *هكذا ورد في الأصل سهوا، والصحيح: "تتركها"، كما ورد في طبعة "الخزائن". (الناشر)*

* *هكذا ورد في الأصل سهوا، والصحيح: " كان". (الناشر)*

بكمال قدرة الله الأعلى، ونؤمن بأنه إن يشأ يخلق من ورق الأشجار كمثل عيسى. وكم من دود في الأرض ليس لها أبوانِ، فأي عجب يأخذكم من خلق عيسى يا فتيان؟ وإن لله عجائبَ نفَضتْ عندها أكياس الكياسة، وغرائبَ ظلَع بها فرسُ الفراسة، بل في كل خَلْقه يظهَر إجبالُ القرائح ويظهَر إكداءُ الماتح والمائح. والذين ينكروها فما قدروا الله حق القدر، وقعدوا في الظلمات مع وجود نور البدر، وبعُدوا من الضياء، فهفا بهم إلى الظلام البَينُ المطرِّحُ والبُعدُ المبرِّحُ. والعجب منهم أنهم مع كونهم ضالّين تمشَّوا أمام الناس كالخِرّيت، وما فرَقوا واقتحموا المَوامي المهلِكة كالـمَصاليت، فهلكوا في الفلوات كالحائر الوحيد، واستسلموا للحَين وما انتهوا من القول المبيد. فلم يأمنوا عثارا، بل زلّوا في كل قدم ورأوا تبارا. وشجّعوا قلوبهم طمعًا في صيد العوام، وزعَرهم ظلمةُ الجهل فما ارتعوا وما امتنعوا من الاقتحام.

ثم عندنا دلائل على موت عيسى لا نرى بدًّا من نشرها لعل الناس يفقهون. فمنها نصوص قرآنية وهي أكبر الدلائل لقوم يفقهون، ومنها نصوص حديثية لأناس يفكرون. فإن الله صرح في آية: ﴿فلما توفيتني﴾ وفاةَ ابن مريم، وصرح معه عدمَ رجوعه إلى الدنيا كما تقدَّم. ورآه نبينا ﷺ ليلة المعراج قاعدا عند يحيى، ولا

يُجوّز العقل أن يُنقَل الحي إلى عالم الموتى، ومَن أُلحِقَ بالموتى فهو منهم كما لا يخفى.

وقال الذين لا يتدبرون كتاب الله وليس في قلوبهم طلب الحق والعرفان، إن حياة عيسى ثابت بما قال الحسن البصري، إنه لم يمت ويأتي في آخر الزمان. فالجواب إنا لا نؤمن ببصري ولا مصري، وإنما نؤمن بالفرقان، ونؤمن بقول نبينا الذي أُعطي علمًا صحيحا من الرحمن. وقد سمعتَ ما جاء في الحديث وفي القرآن المجيد، فلا ينبغي بعد ذلك أن تقول هل من مزيد. وإن الموت من سنة الأنبياء من آدم إلى نبينا خير البرية، فكيف خرج عيسى من هذه السنة المتوارثة؟ وقد ورث هذه السنةَ كلٌّ من جاء بعده من الأبرار، وهلمّ جرّا إلى أن ورثنا من جميع الأخيار.

ثم من الدلائل الوقائعُ التاريخية والشواهد التي جمعتها الكتب الطبية. ومن تصفّح تلك الكتب التي زادت عِدتُّها على الألف، وهي مشهورة مسلَّمة من السلف إلى الخلف، فلا بد له أن يشهد أن مرهم عيسى قد صُنع لجراحة إلهِ أهل الصلبان، وهذه واقعة لا يختلف فيها اثنان. وهي من المراهم المشهورة المقبولة، ويوجد ذكرها في كتب زهاءِ ألف من هذه الصناعة.

وكذلك اطّلعنا على قبره الذي قد وقع قريبا من هذه الخِطّة، وثبت أن ذلك القبر هو قبر عيسى من غير الشك والشبهة. ولا يُضْعِف الحقائقَ الثابتة إنكارُ العلماء الحاسدين، فإنهم لا يتكلمون إلا مستكبرين، ولا يدخلون علينا إلا منكرين. ونجدهم متكبرين كبير الاحتقار، قليل الفهم كثير الإنكار. ثم يقال لهم قدوة الأُمّة ونجوم الملة! ماتت الروحانية، وغلبت الدنيا الفانية. ما لهم لا يفهمون أن رفع عيسى كان لرفع تهمة اللعنة؟ فمن رُفع جسمه إلى السماء فقط فإنه لا يبرأ من هذه التهمة.

ثم لما كان عيسى قد أُرسل إلى قبائل اليهود كلهم وكلٍّ من كان من بني إسرائيل، وكانت القبائل منتشرة في الأرض كما روي وقيل، كان من فرائضه أن يسير ويختار السياحة، ويستقري قبائل أخرى. فكيف صعد إلى السماء قبل تأدية فرضه وتكميل دعوته؟ هذا باطل عند النُّهى.

ثم إنّ ظنَّ رفعِه إلى السماء لم يثمر إلا ثمرة رديّة، ولم ينبت إلا شجرة خبيثة. فلو كان هذا الأمر حقا وكان هذا الفعل من عند الله حقيقة، لــترتّب عليه نتيجة حسنة. فلا شك أن هذا الاعتقاد وسوسة شيطانية، وشبكة إبليسية، ولذلك صُبّتْ منه مصائب على

التوحيد، ووُضع التثليث في موضع اسم الله الوحيد الفريد، وفتح أبواب جهنم على كثير من الناس، وأُلقي منه ألوف من الورى في ورطة الشرك وبراثن الخنّاس. ولو كان المسلمون لم يعتقدوا بهذه العقيدة الفاسدة، لأمِنوا من الارتداد ولنَجَوا من السهام النصرانية. ولكن الآن قد نراهم كالأسارى في يد قسوس النصارى. يقولون بألسنهم: إن سيد الرسل نبيُّنا المصطفى، ولكن لم يقترن هذا القول بالعمل كما لا يخفى. **يا سماء! لم لا تنشق* لجسارتهم؟ ويا أرض!** لم لا تتزلزل* لجريمتهم؟ إنهم إنما رفعوا أَلْوِية المجد والفخار والعز لعيسى، وما أبقوا شيئا **لسيدنا المصطفى**.

ونظر الله إلى الأرض فوجدها مملوّةً من إطراء ابن مريم، ومن التفريط في خير وُلْدِ آدم، ورأى البلادَ في أشد حاجة إلى وجود يُظهِر على أهل الصلبان فضلَ ختم المرسلين، ويدافع عن المسلمين، فبعثني لهذا المقصود، وكان أمرا مقضيا من الله الودود. وإني قد أُقمت لهذه الخدمة من مدة نحو ثلاثين عاما، وقد أدّب الله بي كثيرا من الشُّرُدِ وألجمَهم إلجامًا.

---

* *قد جيء بضمير المذكر للسماء والأرض باعتبار الأول سقفا والثاني كوكبا، ومثاله قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿السماء منفطر به﴾. (الناشر)*

ووالله إن الزمان لا يحتاج إلى رؤية أعجوبةِ نـــزولِ رجل واحد من السماء، بل يحتاج إلى أن تصعد إلى السماء نفوس كثيرة بالتزكي والاتقاء. ألا ترون إلى المسلمين كيف أخلدوا إلى الأهواء الأرضية؟ وكيف انحطوا ونسوا حظهم من الأنوار السماوية؟ ومع ذلك ما بقي فيهم عقل سليم، وفهم مستقيم. تجد قولهم مَجمع التناقضات والـــهفوات، وتجد فعلهم ملوّثًا بالإفراط والتفريط من الجهلات. مثلا إنهم يقولون إن عيسى كان أكبر السيّاحين، وقطع محيط العالم كله ولم يترك أرضا من الأرضين، ثم يقولون قولا خالفَ ذلك ويصرّون على أنه رُفع عند واقعة الصليب بحكم رب العالمين، وصعد إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين. فانظروا في أي زمان ساح في العالم، وزار كل بلدة ولم يترك أحدا من المعالم؟ وكذلك يقولون إن عيسى قد رُفع وأُدخل في الأموات، ثم يقولون قولا خالفَ قولهم الأول، إذ يزعمون أنه حيٌّ وسينـــزل من السماوات. وكذلك يقبَلون أن المسيح الموعود من الأُمّة، ثم يقولون ما خالفَ قولهم هذا ويُظهرون أن عيسى ينـــزل من السماء لا من أمة نبينا خير البرية. وكذلك يقولون: ﴿لا إكراه في الدين﴾*، ويقرؤون هذه الآية في الكتاب المبين، ثم يقولون قولا

* *البقرة:٢٥٧*

خالفَ ذلك ويصرّون على أن مهديهم يخرج بالحسام، ولا يقبل إلا الإسلام. فانظر إلى هذه التناقضات وتوالي الهفوات!

سيقول السفهاء: فما بال القرون الأولى، الذين ماتوا على هذا الخطأ وظنوا أنه ينـــزل عيسى؟ فاعلموا أنهم كمثل اليهود ظنوا قبل خاتم الأنبياء أن مثيل موسى من قومهم، فما أخذهم الله بهذا الخطأ، ولما ظهر سيدنا سيد المرسلين، وأنكره من أنكروه وقالوا كقول السابقين، أخذهم الله بذنوبهم بما كانوا مكذبين. وإن الجُرم لا يكون جُرمًا إلا بعد إتمام الحجة، فالذين ما وُجدوا زمنَ مرسل وخلوا قبل بعثه في الغفلة، أولئك لا يأخذهم الله بما لم ينكروا و لم تبلُغهم دعوة، فيغفر لهم من الرحمة.

أكان للناس عجب* أن جاءهم منذر في هذا الزمان؟ يا حسرة عليهم! كيف نسوا سنن الله مع أنهم يقرؤون القرآن؟ وقد جرت سنة الله في عباده أنهم إذا أسرفوا وجاوزوا حدود الاتقاء، أقام فيهم رسولا لينهاهم عن المنكرات والفحشاء. وإذا جاءهم نذيرهم فإذا هم أحزاب ثلاثة: حزب يعرفونه بِميسمه ونُطقه كما يعرف الفرسُ مسرحه من الأثاثة. وحزب تنفتح عيونهم برؤية الآيات،

* *هكذا ورد في الأصل، و صُحِّح في طبعة "الخزائن": "عجبا". (الناشر)*

وتذوب شبهاتهم بمشاهدة البينات. وفرقة أخرى ما أُعطوا بصيرة من الحضرة، فيخبِطون خبطَ عشواء ولا يصِلون إلى الحقيقة، وتقتضي قلوبهم القاسية عقوبة من العقوبات وآفة من الآفات، ولا يؤمنون أبدا حتى يُسلَب منهم الأمن والراحة، وينـــزل عليهم النصب والشدة. فهذا أصل العذاب النازل من السماء، ولذلك نـــزل الطاعون، فليفكر من كان من أهل العقل والدهاء.

لا إكراه في الدين، ولكن تقتضي طبائعهم نوعا من الإكراه، ولا جبر في الملة، ولكن تطلب فطرتهم قسمًا من الجبر للانتباه. ولا حرج ولا اعتراض، فإنه أمر ما مسّه أيدي الإنسان، بل هو آية من الرحمن. وليست الآيات المنذرة من قبيل الإكراه والجبر، وإنما الإكراه في المرهفات وغيرها من آلات الزُّبَر. فاختار الله لهذا الزمان لتنبيه الغافلين نوعا من العذاب، وهو ما يخرُج من السماء لا ما يخرج من القِراب. فألقى الرعب في القلوب مرة بالطاعون المقعِص البتّار، وطورًا بزلازل سجدتْ لها جدران الديار، وأخرى بطوفانٍ ناريٍّ انشقت به الجبال وارتجّت به البحار. وإنه في تغيُّظ وزفيرٍ، وما قلَّ من تدبير، وما غادر من صغير ولا كبير. وقد جمعت الحكومة لدفعه كلَّ ما رأت أحسنَ في هذا الباب، فما ظفرتْ بسببٍ من الأسباب.

فأصل الأمر أن الله تعالى أجاب طاعِنيّ ومَنْ معهم بالطاعون، ومَنَّ عليّ بالمنون، وخاطبني قبل هذا الوباء، وقال: "الأمراض تشاع والنفوس تضاع"، فأنــزل النكال وفعَل كما قال. ووالله إني قد أُنبئتُ به قبل هذه المائة الهجرية، ثم تواتر الأخبار حتى ظهر الطاعون في هذه الناحية. ولما بلغني هذا الخبر ووصلني منه الأثر، أجَلتُ فيه بصري، وكررت فيه نظري، فإذا هي الآية الموعودة، والعِدَة المعهودة. ثم إن الطاعون قلّل المعادين، وكثّر حزبنا المستضعَفين، حتى إنهم صاروا زهاء مائة ألفٍ أو يزيدون. وأما في هذه الأيام فعِدّتُهم قريب من ضِعفها، وإن في هذه لآية لقوم يتدبرون.

والذين اعتنقوا الحسد والشحناء، فهم يؤثرون الظلام ولا يؤثرون الضياء، وقد انتقشت الضغائن والأحقاد على قرائحهم من الابتداء، وهي شيء توارثه الأبناء من الآباء. وترى فيهم موادًا سُمِّيّةً من البخل والعُجب والرياء، ما سمعنا نظيرها في قرون طويلة وأزمنة ممتدة في قصص الكفار والأشقياء. ووالله كفى مِن عَلَمٍ على قرب القيامة وجودُ هذه العلماء. يقرَبون أهلَ الدنيا ليُكرَموا عندهم، ولا يقرَبون التقوى ليُكرَموا في السماء. وقع الإسلام في وِهاد الغربة وهم ينامون على بساط الراحة، ودِيست المِلّة وهم

يراؤون بالعمامة والجبّة والعصيّ الجميلة واللحى الطويلة. زالت قوة الملة وفُقد سلطان الدين، وهم يبتغون زينة الدنيا وقُرب السلاطين. ثم مع ذلك لا حاجة عندهم إلى مجددٍ من الرحمن! وحسبُهم أنفسُهم حُماةَ الدين وكُماةَ الميدان!

ولما التصق بهم كثير من نجاسة الدنيا وعفونتها، وقذرِها وعَذَرتِها، ذهب الله بنور عرفانهم، وتركهم في طغيانهم. ما بقي فيهم دقة النظر وصحة الفراسة، وقوة تلقِّي الأسرار ولطافة العقل والكياسة. وأرى أن أبواب الهدى تفتح على غيرهم ولا تفتح عليهم لخبث القلوب، فإنهم قطعوا العُلَقَ كلها من المحبوب، وصعب عليهم استقصاء الحقائق واستخراج الدقائق وحلُّ المعضلات الدينية. ومع ذلك هم الأمناء والصادقون والصالحون في أعين العامة، والأبرياء مِن كل ما ذكرنا في هذه الصحيفة! فهذا إحدى المصائب على الملة، وليس الطاعون إلا نتيجة هذه التقاة، وثمرة هذه الحسنات!

ونرى أن هذه البلاد وشوارعها قد بولغ في أمور نظافتها ببذل المال والسعي والهمة، وأُلقي في كل بئرٍ دواءٌ يقتل الديدان بالخاصية، ثم نرى الطاعون كل يوم في الزيادة، وكذلك ثبت

التطعيم كالعقيم، وبطل ما ظُنَّ فيه من المنفعة، وقد سمعتَ ما ظهر من النتيجة، وما نفَع شربُ الأدوية، ولا تعهُّدُ الحارات والأزقّة والمنازل الـــموبوءة، وإزالةُ كل ما كان مضرّا بالصحة. وقد بلغت التدابير منتهاها، ثم مع ذلك نرى نار الطاعون يزيد لظاها. وما تقلَّص إلى هذا الوقت هذا الداء الوبيل، وما انقشعت غياهبه إلى قدر قليل، بل صراصره كل يوم مُجيحة، وزلازله مُبيدة، وعقول الأطباء متحيرة، وأحلامهم مبهوتة. ولم يقتصر هذا المرض على المحالّ القذرة كما ظن في الابتداء، بل زار القذرةَ وغيرها على السواء، ودخل جميع الربوع والأحياء، وفجَع كثيرا من أهلها وملأ البيوت من الصراخ والبكاء. وتواترت زلازله الـــمفزعة، وصواقعه المريعة، ودخل كل بلدة بأنواع العذاب، ولكن طابت له الإقامة في الفنجاب. وما بقيت أرض لم تحدث فيها إصابة ما من الطاعون، ولم يبق دار لم يرتفع فيها أصوات الـــمَنون.

فما ذلك إلا جزاء الأعمال، وثمرة ما تقدم من سيئات الأقوال والأفعال. وإلى الآن لم ينقطع هذا الطوفان، ولم يبق جميل الصبر والسلوان. وكيف ولم ينقطع مادّته التي في الصدور، بل هي في زيادة وبدور. قد سمعوا ما جاء من الله ذي الجلال، ثم لا يتمالكون أنفسهم من الاشتعال، وقطعوا العُلَق وأقسموا جهد أيمانهم أنهم لا

يسمعون الحق ولا يتركون الضلال. وكانوا يقولون من قبل إن قول الحَكَمِ مقدَّم على الأحاديث الظنية، والآن يقدّمون ظنوهم على النصوص القرآنية والدلائل القطعية. وإن جبروت الألوهية أدهشت الدنيا كلها ولكن ما قرُب خوفٌ قلوبَ هذه الطائفة، كأهم براء في صُحف المشيّة. وقد رأوا نقل بعض الصدور منهم إلى القبور، ثم لا يمتنعون من السب والشتم والكذب والزور، كأهم أُرضعوا بها من ثدي الأمهات، أو وُلدوا فطرةً على هذه الجهلات.

أيحسبونني أني أُحِبُّ الشهرة فيحسدون؟ ووالله إني لا أحب إلا مغارة الخلوة لو كانوا يعلمون. وما كنتُ أن أخرُج إلى الناس من زاويتي، فأخرجني ربي وأنا كارهٌ من قريحتي. وكنت أتنفر كل نفرة من الشهرة، وما كان شيء ألذ إليّ من الخلوة، فأيّ ذنب عليّ إن أخرجني ربي من حجرتي للمصلحة العامة. وما كنت من جرثومة العلماء الأَجِلّة، ولا من قبيلة من بني الفاطمة، لأُظَنَّ أني أطلب منصب بعض آبائي بهذه الحيلة. وما كان هذا إلا فعل من السماء، وما كنت أنتظره لنفسي كأهل الأهواء.

ثم بعد ذلك سعى العلماء كل السعي ليهدّوا بنياننا، ويُفرّقوا أعواننا، فكان آخر أمرهم أنهم أصبحوا خاسرين. وجمع الله شملنا وبايعَنا أفواج من الطالبين. وكان هذا أمرا موعودا من الله تعالى في كتابي "البراهين"، من مدة عشرين سنة، وإن في ذلك لآية للمتفكرين. وأظهر الله لي آيات من السماء وآيات في الأرض ليهتدي بها من كان من المبصرين.

وإن الزمان يتكلم بلسان الحال أنه يحتاج إلى مصلح، وقد بلغ إلى غاية الاختلال. ويوجد في العالم تقلُّبٌ أليم، وتغيّر عظيم، لا يوجد مثله فيما سبق من الأزمنة، وإن الهِمم كلها تمايلت على الدنيا الدنيّة، وبقي القرآن كالمهجور، وأُخِذت الفلسفة كالقِبلة. ونرى الكسل دخَل القلوبَ، ونرى البدعاتِ دخلت الأعمالَ، ويُسَبُّ نبيُّنا ويُشتَم رسولنا ويحسبونه شر الرجال، ويُكذَّب كتاب الله بأشنع الأقوال وأكره المقال. فأين غيرة الله للقرآن وللرسول وقد وُطِئَ الإسلام كذرّة تحت الجبال؟ أينتظرون عيسى وقد ثارت بسببه فتنٌ وهو في السماء؟ فما بال يوم إذا نـــزل في الغبراء؟

وكانت اليهود قبل ذلك ينتظرون، كمثل قومنا، إلياسَ، فما كان مآل أمرهم إلا ياس. فمِن عقل المرء أن يعتبر بالغير ويجتنب

سبل الضير، وقد قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون﴾*. فليسألوا النصارى هل نـــزل إلياس قبل عيسى من السماء كما كانوا يزعمون؟ وليسألوا اليهود هل وجدتم ما فقدتم أيها المنتظرون؟ فثبت من هذا أن هذه العقائد ليست إلا الأهواء، ولا يجيء أحد من السماء وما جاء. فمن كان يبني أمره على العادة المستمرة والسنة الجارية، هو أحق بالأمن من رجل يأخذ طريقا غير سبيل متوارث من السابقين، ولا يوجد نظيره في الأوّلين. وليس مثله إلا كمثل الذين يطلبون الكيمياء، فينهب ما بأيديهم زمرةُ الشُطّار والمحتالين، فيبكون عند ذلك ولا ينفعهم البكاء.

وإن الأخبار الغيبية لا يخلو أكثرها من الاستعارات، والإصرار على ظواهرها مع مخالفة العقل ومخالفة سنة الله في أنبيائه من قبيل الضلالة والجهلات. وإن الكرامات حق لا ننكرها في وقت من الأوقات، ولكن ننكر أمرا خالفَ كُتب الله وخالف ما ثبت من تلك الشهادات، وخالفَ سنن الله في رسله ونافى كل المنافاة، وهذا هو الحق كما لا يخفى على أهل الحصاة. وما أنكر اليهود

* النحل: ٤٤

عيسى إلا بما لم ينـــزل إلياسُ من السماء قبل ظهوره، فقالوا كافر كذاب ملحد و لم يعترفوا بذرّة من نوره. فلو كان من عادة الله إنزال الذين خلوا من السماوات، لأنزل إلياس قبل عيسى ولنجّى رسوله من ألسن اليهود ومن سبّهم إلى هذه الأوقات. والحق إن لكل أمة ابتلاء عند ظهور إمامهم، ليعلم الله كرامهم من لئامهم. كذلك لما جاء عيسى ابتُلي اليهود بعدم نزول إلياس من السماء، ولما جاء سيدنا المصطفى قالوا ليس هو من بني إسرائيل فابتُلوا بهذا الابتلاء. ثم إني لما بُعثتُ في هذا الزمان من ربي الأعلى نَحَت علماء الإسلام عذرًا كما نَحَتَ اليهود لإنكار عيسى. فالقلوب تشابهت، والوقائع اتحدت، فما نفعتْهم آية، وما أَدْرَتْهم دراية. ووالله لو تمثلت الآيات النازلة لتصديقي وتأييدي على صور الرجال، لكانت أزيدَ من أفواج الملوك والأقيال. ولا يأتي علينا صباح ولا مساء إلا ويأتي به أنواع الآيات، ثم مع ذلك ما أُريتُ آية في زعم هذه العجماوات!

وإن الله حقّق في نفسي سورة الضحى إذ توفي أبي، وقال: "أليس الله بكاف عبده"، فكفلني كما وعد وآوى. ثم لما رآني ضالا مضطرا إلى سبيله الأخفى، و لم يكن رجل ليهديني.. علّمني من لدنه وهدَى. ثم لما جمع عندي فوجا ووجدني عائلا أنعم عليّ

وأغنى. وهو معي أينما كنت، ويبارز لي من بارزني من العدا، ولي عنده سرّ لا يعلمه غيره لا في الأرض ولا في السما. وإذ قال: "أليس الله بكاف عبده" في يوم وفاة أبي، فوالله ما ذُقْتُ عافية وراحة في عهد أبي كعهد ربي. وإذ رآني في ضلالة الحب وبشرني بالهداية، فوالله جذَبني كل الجذب وأجرى إليّ بحار الدراية. وإذ قال إني سأغنيك ولا أتركك في الخصاصة، فوالله أنعم عليّ وعلى مَن معي مِن فوج من أصحاب الصفة.

هذه قصتي.. ثم يجعل الحاسدون من العلماء في الدجالين حصتي. لا يرون ضعف الدين والملة، بل يُضعِفون الضعيف ويتركونه في الأنياب النصرانية.

التعليم للجماعة

لا يدخل في جماعتنا إلا الذي دخل في دين الإسلام، واتّبع كتابَ الله وسُننَ سيدنا خير الأنام، وآمن بالله ورسوله الكريم الرحيم، وبالحشر والنشر والجنة والجحيم. ويعِد ويقرّ بأنه لن يبتغي دينا غير دين الإسلام، ويموت على هذا الدين.. دين الفطرة.. متمسكا بكتاب الله العلام، ويعمل بكل ما ثبت من السنّة والقرآن وإجماع الصحابة الكرام. ومن ترك هذه الثلاثة فقد ترك نفسه في النار، وكان مآله التباب والتبار.

فاعلموا أيها الإخوان أن الإيمان لا يتحقق إلا بالعمل الصالح والاتقاء، فمن ترك العمل متعمدا متكبرا فلا إيمانَ له عند حضرة الكبرياء. فاتقوا الله أيها الإخوان وابدُروا إلى الصالحات، واجتنبوا السيئات قبل الممات. ولا تغرَّنّكم نضرة الدنيا وخُضرها، وبريق هذه الدار وزينتها. فإنها سراب ومآلها تباب، وحلاوتها مرارة وربحها خسارة. وإن الصاعدين في مراتبها يشابهون دَرِيّةَ الصَّعْدة، والراغبين في شوكتها يضاهئون مجروحَ الشوكة. ومَن تمايَلَ على خيرها فهو يبعد من معادن الخيرات، ومن دخل في سراها فهو

يخرج من الصراط. وإن نورها ظلمات، ونجدها ظلامات. فلا تميلوا إليها كل الميل، فإنها تُغرق سابحها ولا كالسيل. ولا تقصدوها قصدَ مُشيحٍ فارغٍ من الدين، ولا تجعلوها إلا كخادم في سبل الملة لا كالخَدِين. ولا تطمَعوا كل الطمع في أن تكونوا أغنى الناس رحيبَ الباع خصيب الرِّباع، ولا تنسوا حظّكم من دينكم فلا تُعطَون ذرة من ذلك الشعاع. وإن الدنيا أكلت آباءكم وآباء آبائكم، فكيف تترككم وأزواجكم وأبناءكم؟

ولا تتخذوا أحدًا عدوًّا من حقدِ أنفسكم كالسفهاء، وطهِّروا نفوسكم من الضغن والشحناء. ولا تنكُثوا العهود بعد ميثاقها، ولا تكونوا عبيدَ أنفسكم بعد استرقاقها، وكونوا من عباد الله الذين إذا حالفوا فما خالفوا، وإذا وافقوا فما نافقوا، وإذا أحبّوا فما سبّوا. ولا تتبعوا الشيطان الرجيم، ولا تعصوا ربكم الكريم، وإن مِتّم بالعذاب الأليم.

كونوا لله أطوعَ من الأظلال، وأصفى من الزلال، وتَواصَوا بالأفعال لا بالأقوال. وتَحامَوا اللسان، وطهِّروا الجنان. وإذا تنازعتم فرُدُّوه إلى الإمام، وإذا قضى قضيتكم فارضوا بها واقطعوا الخصام، وإن لم ترضوا فأنتم تؤمنون بالألسن لا بالجنان، فاخشوا

أن تحبَط أعمالكم بما أصررتم على العصيان.

تيقّظوا أن لا تضلّوا بعد أن جاءكم الهدى، وكونوا لربكم وآثروا الدين على الدنيا، ولا تكونوا كالذين لا يخافون الله ويخافون عباده، ويتبعون أهواءهم وينسون مراده. يبتغون عند أبناء الدنيا عزة، وما هي إلا ذلة.

أنتم شهداء الله فلا تكتموا الشهادة، وأخبِروا عباده أن النار موقودة فاتقوها، والديار موبوءة فاجتنبوها. وإن الدنيا شاجنة، وأُسودُها مفترسة، فلا تجولوا في شجونها، وامنعوا نفوسكم من جرأتها ومجونها، وزَكُّوها وبيِّضوها كاللُّجَين، ولا تتركوها حتى تصير نقيّة من الدَّرَن والشَّين. وقد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها. ولا تتّكئوا على البيعة من غير التطهر والتزكية، ولستم إلا كهاجِنٍ من غير عُدّةِ الفطرة، ولا تطلبوا عين المعرفة من الذين لم يُعطَوا عين البصيرة. واعتلِقوا بي اعتلاقَ الزهر بالشجرة، لتصلوا من مرتبة النَّور إلى مرتبة الثمرة.

اتقوا الله.. اتقوا الله يا ذوي الحصاة، ولا تكونوا كمن لوى عِنانه إلى الشهوات، ولا تنسوا عظمة رب يرى تقلُّبَكم في جميع الحالات. وإن الله لا يحب إلا قلوبا صافية، ونفوسا مطهرة،

وهممًا مُجدّة مُشيحة. فمتى تنفَون هذا النمط تضاهئون في عينه السقَطَ. فإياكم والكسلَ وعيشةَ الغافلين، وأَرْضُوا ربكم قائمين أمامه وساجدين غير مستريحين، وحافِظوا على حدوده وكونوا عبادا مخلصين. وَلْيَسْرِ عنكم همُّكم بذِكرٍ كريمٍ هو مهتمّكم. وكيف يسري الوسنُ إلى آماقكم، وليس توكُّلكم على خلاقكم عند إشفاقكم؟

اتبعوا النور ولا تؤثروا السُّرَى، وانظروا إلى وجه الله ولا تنظروا إلى الورى. اشكروا حكام الأرض ولا تنسوا حاكمكم الذي في السماء. ولن ينفعكم ولن يضركم أحد إلا إذا أراد ربكم، فلا تبعُدوا من ربكم يا ذوي الدهاء. ترون كيف تُوضَع في الخَلق السيوف، ويتتابع الحتوف، وترون صَولَ القَدَرِ وتبابَ الزُّمَرِ. فعليكم أن تأووا إلى ركن شديد، وهو الله القوي ذو العرش المجيد. كونوا لله وادخلوا في الأمان، ولا عاصِمَ اليوم من دونه يا فتيان. ولا تخدعوا أنفسكم بالحيل الأرضية، والأمر كله بيد الله يا ذوي الفطنة. ولا تتركوا بَونًا بينكم وبين الحضرة، يكُنْ بَونٌ منه وتهلكوا بالذلة. اقطعوا رجاءكم من غير الرحمن، يرحَمْكم ويخلُقْ لكم من عنده ما يُنجي من النيران. أرى في السماء غضبا فاتقوا يا عباد الله غضب الربّ، وابتغوا فضلَ مَنْ في السماء ولا تُخلِدوا إلى

الأرض كالضبّ. بالِغوا في الطلب، وأَلِحُّوا في الأَرَب، لتُنجوا من الكرب.

ترون في هذا الزمان قومين: قوما فرّطوا وقوما أفرطوا مع العينين، وخلَطوا الحق بخلط الصدق والمَين. أما الذين فرّطوا فهم أناس لا يؤمنون بالمعجزات، ولا يؤمنون بالوحي الذي ينزل بزيّ الكلام اللذيذ من رب السماوات. ولا يؤمنون بالحشر والنشر ويوم القيامة، ولا يؤمنون بالملائكة. ونَحَتوا من عندهم قانون القدرة وصحيفة الفطرة، وليس عندهم من الإسلام إلا اسمه، ولا نراهم إلا كالدهرية والطبيعية. وأما الذين أفرطوا فهم قوم آمنوا بالحق وغير الحق وجاوزوا طريق الاعتدال، حتى إنهم أقعدوا ابن مريم على السماء الثانية بجسمه العنصري من غير سلطان من الله ذي الجلال، واتّبعوا الظنون وليس عندهم علم وإنْ هم إلا في الضلال. فهذان حزبان خرج كلاهما من العدل والحزم والاحتياط، وأخذ أحدهما طريق التفريط والآخر طريق الإفراط.

ثم جاء الله بنا فهدانا الطريق الوسط الذي هو أبعد من سبل الخناس، فنحن أمةٌ وسطٌ أُخرجتْ للناس. والزمان يتكلم بحاله، أن هذا هو المذهب الذي جاء وقتُ إقباله. وترون بأعينكم كيف جذَبْنا الزمان، وكيف فتَحْنا القلوب ولا سيفَ ولا سنانَ. أهذه

من قوى الإنسان؟ بل جذبةٌ من السماء فينجذب كل من لــــه العينان. يمسي أحد منكرا ويصبح وهو من أهل الإيمان. أهذه من قوى الإنسان؟

شهد القمرانِ بالكسوف في رمضان. أهذه من قوى الإنسان؟

وكنت وحيدا، فقيل سيُجمع عليك فوج من الأعوان، فكــان كما قال الرحمن. أهذه من قوى الإنسان؟

وسعى العدا كل السعي ليُجيحوني من البنيان، فعلَونا وزدنــا ورجعوا بالخيبة والخسران. أهذه من قوى الإنسان؟

ومكر العدا كل مكر لأُحبَسَ أو أُقتَلَ ويخلو لهم الميدان، فمــا كان مآل أمرهم إلا الخذلان والحرمان. أهذه من قوى الإنسان؟

ونصرني ربي في كل موطن وأخزى أهل العدوان. أهذه مــن قوى الإنسان؟

وبشرني ربي بالامتنان، وقال: "يأتيك مِن كلِّ فَجٍّ عميقٍ"، وأنا إذ ذاك غريب في زوايا الخمول والكتمان. فوُضع لي القبول بعــد طويل من الزمان، وأتاني الأموال والتحائف من الــديار البعيــدة وشاسعة البلدان. فمُلئت داري منها كثمار كثيرة على أغصــان البستان. ووالله لا أستطيع أن أحصيها ولا يطيق وزنها ميــزانُ

البيان. وتمّتْ كلمة ربي صدقا وحقا، ويعرف هذا النبأ ألوف من الرجال والنساء والصبيان. أهذه من قوى الإنسان؟

وخاطبني ربي وقال: "يأتون مِن كل فجٍّ عميقٍ، فلا تُصعِّرْ لِخَلْقِ الله ولا تَسْأَمْ من كثرة اللقيان. وأنا إذ ذاك كنت كسَقَطٍ لا يُذكَر ولا يُعرَف وكشيء لا يُعبَأ به في الإخوان. فأتى عليّ زمان بعد ذلك أن أتاني خَلق الله أفواجا وأطاعوني كغلمان، ولولا أمر ربي لسئِمت من كثرة اللقيان. أهذه من قوى الإنسان؟

وإنه آتاني كلماتٍ أُفصِحتْ من لدنه، فما كان لأحد من العدا أن يأتي بمثلها، وسلب منهم قوة البيان. أهذه من قوى الإنسان؟

ودُعيتُ لأُباهِل بعض الأعداء، فإذا تعاطَينا كأسَ الدعاء، واقتدحنا زِنادَ المباهلة في العَراء، ألحَقَ الله بنا بعده عساكرَ من أهل العقل والعرفان، وفتح علينا أبواب النَّعماء من الرحمن، وزاد أعزّة جماعتنا إلى مائة ألف بل صاروا قريبا من ضعفها إلى هذا الأوان، وكانوا إذ ذاك أربعين نفرا إذ خرجنا إلى أهل العدوان. وردَّ الله عدُوّي المباهِلَ كل يوم إلى الخمول والخذلان. أهذه من قوى الإنسان؟

فالآن يا إخواني الذين تحلَّوا بالفَهْمِ، وتخلَّوا من الوهم، اشكروا المنان، فإنكم وجدتم الحق والعرفان، وتبوأتم مقام الأمان، وكونوا

شهداء لي عند أبناء الزمان. ألستم شاهدين على آياتي، أم لكم شبهة في الجنان؟ وأي رجل منكم ما رأى آية مني، فأجيبوا يا فتيان؟ وإني أُعطيتُ معارف من ربي، ثم علّمتكم وصقَلت بها الأذهان، وما كان لكم بحلِّ تلك العُقَدِ يَدانِ.

ووالله إني امرؤ أنطَقَني الهدى، ونطَّق ظهري وحيٌ يوحى، فوجدتُ الراحة في التعب والجنةَ في اللظى، فمَن آثر الموت فسيحيا. فلا تبيعوا حياتكم بثمن بخس، ولا تنبذوا من الكفّ خلاصةَ نَضٍّ، ولا تكونوا من الذين على الدنيا يتمايلون، ولا تموتوا إلا وأنتم مسلمون. إني اخترت لله موتًا فاختاروا له وَصَبًا، وإني قبلت له ذبحًا فاقبلوا له نصبًا. واعلموا أنكم تُفلحون بالصدق والإخلاص والاتقاء، لا بالأقوال فقط يا ذوي الدهاء. وإن الفلاح منوطٌ بِمُقُوطكم كل المناط، ولن تدخلوا الجنة حتى تلِجوا في سَمِّ الخِياط. فامتحِضوا حَزْمَكم للتقاة، واختبِطوا لإرضاء ربكم في زوايا الحجرات والفلوات. اقضوا غريمَكم الدَّينَ لئلا تُسجنوا، وأدُّوا الفرائض لئلا تُسألوا، واستَقْرُوا الحقائق لئلا تخطئوا، ولا تَزْدروا لئلا تُزْدروا، ولا تُشدِّدوا لئلا تُشدَّدوا، وارحموا يا عباد الله تُرحَموا، وكونوا أنصار الله وبادِروا.

إن الله مَلَكَ كُثْرَكم وقُلَّكم وأعراضَكم ونفوسَكم بعد البيعة وآتاكم به رضوانه، فاثْبُتوا على هذه المبايعة لتُغمَروا بالنُّحْلان، وتدخلوا في الخُلان. ارْهفوا همَمَكم لتكميل الدين، واجعلوا لأنفسكم مِيسم الشبّان ولو كنتم مشائخ فانين. اذكروا موتكم يا فتيان، ولا تمِيسوا كالنشوان. ترون الناس جعلوا مقصودهم في كل أمر نشبًا، وإن لم يحصل فيحسبون الدين نصبًا. وفي الدين لا يعضُد همَمَهم إلا الأهواءُ، فيقبَلون بشرطها وإلا فالإباء. ولا يبالون مَقاحِمَ الأخطار، ولا مخاوفَ الأقطار. لا يعلمون أي شيء يدفع ما أصابهم، وينفي الحذَرَ الذي نابهم. أسلموا للدنيا وملؤوا منها قلوبهم، فيَعْدُون إليها وتحدُو الأهواءُ ركوبَهم.

أيها الناس قد عاث الطاعون في بلادكم، وما رأى مثلَ صولِه أحدٌ من أجدادكم. وتعلمون أن دُودَه لا تَهلِكُ إلا في صميم البرد أو في صميم الحر، فاختاروا كليهما تُعصَموا من الضر. ولا نعني بالبرد إلا تبريد النفس من الجذبات، والانقطاع إلى الحضرة والإقبال عليه بالتضرعات، ولا نعني بالحر إلا النهوض للخدمات، وتَرْك التواني ورَفْض الكسل بحرارة هي من خواصّ الخوف والتقاة، ومن لوازم الصدق عند ابتغاء المرضاة. فإن شَتَوتم فقد نجوتم، وإن اصطَفْتم فما هلكتم وما تَلفتم.

أيها الإخوان.. إن متاع التقوى قد بارَ، وولّتْ حُماتُه الأدبار، وخرج الإيمان من القلوب، وملئت النفوس من الذنوب. فاسعوا لهذا الأرب وجلبِه، وانطلِقوا مُجدِّين في طلبه، لتنجوا من طاعون متطائرٍ بشرره، الذي يفرّق بين الأخيار والأشرار. واعلموا أن الأرض زُلزلت مرتين زلزالا شديدا: الأولى لما تُرك ابن مريم وحيدا، والثانية حين رُدِدْتُ طريدا. فلا تنُوموا عند هذه الزلزلة، وتَبصَّروا وتيقَّظوا وبادِروا إلى ابتغاء مرضاة الحضرة.

وآخر ما نخبركم به يا فتيان، هي كلمات مبشرة من الرحمن. خاطبني ربي وبشرني ببشارة عظمى، وقال: "يأتي عليك زمن كمثل زمن موسى. إنه كريم، تمشَّى أمامك وعادَى لك من عادى. يعصمك الله من العدا، ويسطو بكل من سطا. يبدي لك الرحمن شيئا. بشارة تلقاها النبيون. إن وعد الله أتى، وركَل وركا، فطوبى لمن وجد ورأى. قُتِلَ خيبةً وزِيدَ هيبةً". ثم في يوم من الأيام، أُرِيتُ قرطاسا من ربي العلام، وإذا نظرت فوجدت عنوانه: **"بقيّة الطاعون"**، وعلى ظهره إعلان مني كأني أشعتُ من عندي واقعة ذلك المنون.

ترجمة ما كتَبْنا إلى "ثناء الله الأمرتسري"، إذ جاء قاديانَ وطلَب رَفْعَ الشبهات بعَطَشٍ فَرِيٍّ، وكان هذا عاشر شوّال سنة ١٣٢٠هـ إذ جاء هذا الدجّال

بلغني مكتوبك، وظهر مطلوبك. إنك استدعيت أن أزيل شبهاتِك التي صُلْتَ بها على بعض أنبائي الغيبية. فاعلم أنك إن كنتَ جئتني بصحة النية، وليس في قلبك شيء من المفسدة، فلك أن تقبل بعض شروطي قبل هذا الاستفسار، ولا تخرج منها بل تثبت عليها كالأخيار. وإن كنت لا تقبل تلك الشرائط فدَعْني وامْضِ على وجهك، وخُذْ سبيلَ رجعِك.

فمن الشروط أن لا تباحثني كالمباحثين، بل اكتُبْ ما حاكَ في صدرك ثم ادفَعْ إليّ ما كتبتَ كالمسترشدين، وليكُنْ كتابك سطرا أو سطرين ولا تزد عليه كالمتخاصمين. ثم علينا أن نجيبك ببيان مفصل وإن كان إلى ثلاث ساعات. فإن بقي في قلبك شيء بعد

السماع، ورأيتَ فيه من شناعة، فلك أن تكتب الشبهة الباقية كمثل ما كتبت في المرتبة الأولى، وهلمّ جرّا، حتى تجلو الحقَّ وتجد السكينة، ويتبين ما كان عليك يخفى.

وما فعلتُ ذلك لتسكيتك وتبكيتك ولا لحيلة أخرى، بل إني عاهدت الله تعالى بحَلْفة لا تُنسى، أن لا أباحث أحدا من كرام كان أو لئام، بعد كتابي "أنجام". فلا أريد أن أنكث عهدي الأجلى، وأعصي ربي الأعلى. وقد قرأتَ كتابي فتقبَّلْ عذري، واسلُكْ وفق شرطي، إن كنت من أهل التقوى وأولي النهى.

وكتبت في رقعتك أن طلب الحق استخرجك من كِناسك، ورحّلك عن أُناسك. فإن كان هذا هو الحق فلمَ تعاف طريقا يعصمني من نكث العهد ونقض الوعد، وفيه تُؤَدةٌ وبُعدٌ من خطرات الوَبَد، على أنه هو أقرب بالأمن في هذا الزمن. فإن النزاع يزيد ويشتعل عند المقابلة بالمطالبة، وينجرّ الأمر من المباحثة إلى المجادلة، ومن المجادلة إلى الحكام، ومن الحكام إلى الأَثام. فمن فطنة المرء أن يجتنب طرق الأخطار، ولا يسعى متعمدا إلى النار. وأي حرج عليك في هذا الطريق الذي اخترتُه؟ وأي ظلم يصيبك من النهج الذي آثرتُه؟ وإني ما عُقْتُك مِن عرضِ الشبهات،

ولا من رمي سهام الاعتراضات، بيد أني اخترتُ طريقا هو خير لي وخير لك لو كنت من العاقلين.

ولا مانع لك أن تكتب مائة مرة إن كنت من المرتابين، وإنما اشترطت لك الإيجاز في الترقيم لئلا نقع في بحث نتحاماه خوفا من الحسيب العليم.

ثم من الواجبات أن لا تعترض علينا إلا اعتراضا واحدا من الاعتراضات، وشبهة من الشبهات. ثم إذا أدّينا فريضة الجواب بالاستيعاب، فعليك أن تعرض شبهة أخرى وهذا هو أقرب إلى الصواب.

فإن كنتَ خرجت من بلدتك على قدم السداد، وليس في قلبك نوع من الفساد، فلا يشقّ عليك ما كتبنا إليك وتقبَله كعَدْلٍ فارغٍ من الحقد والعناد. وإن كنت تظن أن هذا الطريق لا يُظفِرك بمرادك، فأيقِنْ أنك تريد هناك بعض فسادك، وكذلك ظهرت الآثار، وعلِم الأخيار. فإني لما أوصلت عزمي إلى أذنيك، تراكمت الظلمة على عينيك، وغشِيك من الغمّ ما غشي فرعون من اليمّ، وآلتْ حالتك إلى سلب الحواس، وجعلك الله في الأخسرين في هذا البأس. ثم امتدّ منك اللجاج لترك الحياء، لننكث عهد حضرة

الكبرياء. فالعجب كل العجب! أأنت إنسان أو من العجماوات؟ فإنك ترغّبني في نقض العهد يا ذا الجهلات. وقد علِمتَ أنك خُيِّرتَ في كل ساعة لتجديد الشبهة، فليس الآن انحرافك إلا من فساد القلب وسوء النية. والذي أنزل المطر من الغمام، وأخرج الثمر من الأكمام، لقد نويتَ الفساد، وما نويتَ الصدق والسداد. وكان الله يعلم أنك لأي مكر وافيتَ القريةَ وحللتَ، وعلى أي قصد أجفلتَ، فسقاك كأسك، وأراك يأسك، ولم يزل بصري يُصعّد فيك ويُصوّب، ويُنقّر عنك ويُنقّب، حتى ظهر لي أنك من المرائين لا من عِطاش الحق والطالبين، ولا تبتغي إلا شهرةً عند زمع الأناس، وعند سفهاءِ القوم الذين قد سُجنوا في سجن الخناس.

ثم إني كما أحلفتُ نفسي أُحْلِفُك بالله سريع الحساب أن لا تبرح هذه القرية إلا بعد أن تعرض شبهاتك بنمط كتبتُ في الكتاب، وتسمع ما أقول لك في الجواب. وأدعو الله السميع المستجيب القدير القريب أن يلعن من نكث بعد هذه الأَلِيَّة، وما بالى الحلفَ وذهب من غير فصل القضية، ورحَل قبل درء هذه المخاصمة، مع أنه أُنبِئَ بهذا البَهْلِ بإرسال الصحيفة.

وكنت أنتظر أن هذا العدو يخاف هذه اللعنة، أو يختار الرحلة، حتى وصلني خبر فراره، فهذا نموذج دينه وشعاره. قاتله الله! كيف نكث الحلف بالجرأة. فيا رب، أَذِقْه طعم نقض الحلفة. وقد حقَّ القول مني أنه لا يوافيني لإزالة الشبهات، ولا يميل إلا إلى بهتان وكيد وفرية كما هي عادة أهل المعاداة والجهلات.

وكان هذا الرجل عزم على مماراةٍ مشتدّةِ الهبوب، ومباراةٍ مشتطّةِ اللهوب، ليشتبه الأمر على العوام، وليخفى صدق الكلام تحت نهيق اللئام. فلما لم نر فيه سِيماء التقى، ولا أثر الحِجى، أردنا أن نخرج الأمر من الدجى. وقد سبق مني عهدي في ترك الـمَباحث كما مضى، وكان هذا أمرا من ربي الذي يعلم الغيوب، وينقّد القلوب. فتحامَينا كيدَه، وجعلْنا نفسه صيده. وحينئذ حفّتْ بي فرحتانِ، وحصل لي فتحانِ، و لم أدرِ بأيهما أنا أوفى مرحًا وأصفى فرحًا، فشكرتُ كالحيران. ولا حاجة إلى إعادة ذكر هذه الفرحة والفتح والنصرة، فإنك سمعتَ كيف انكفأ العدو بالخيبة والذلة ووصمة اللعنة، وأرصدته بإحلافي إياه للعنة والبركة، فحمل اللعنة وذهب بها من هذه الناحية.

وأما الفتح الذي أُخفِيَ إلى هذا الوقت من أعين الناس، فهـــي آيات وُضِعتْ على رأس العدا كالفأس. وكنا ناضلْنا بالإعجـــاز كما يُتناضل يوم البِراز، فنصَرنا اللهُ في كل مـــوطن، وأخرَجْنـــا الذهب من كل معدن. وكنتُ قلت للناس إن الله سيُظهر لي آيـــة إلى ثلاث سنين، لا تمسّها يدُ أحد من العالمين، فإن لم تظهر فلستُ من الصادقين. فالحمد لله على ما أظهر الآيات وأخـــزى العـــدا، ونرى أن نكتبها مفصلة لكل من يبتغي الهدى.

تفصيلُ آيات
ظهرتْ في هذه الأعوام الثلاثة
وتفصيل فتح رُزقنا في تلك الحماسة

الله الله! له المجد والكبرياء، ومنه القدر والقضاء، تسمع حُكْمَه الأرض والسماء، وتطيعه الأعيان والأفياء، والظلمات والضياء. يعطي الفهمَ من يشاء، ويسلب ممن يشاء. سبحانه وتعالى.. أظهر علاءنا وحطَّ أعداءنا. شموسهم كُوِّرتْ، ونجومهم انكدرت، وجبالهم نُسفت، وحبالهم مُزّقت، وأشجارهم اجتُثّت، وأنوارهم طُمست. كادوا كيدا، وكاد الله كيدا، فجعَل كلَّ من نهض للصيد صيدا. ألم تر إلى الذين أنكروا آياتي، وفتنوا المؤمنين وصالوا على عِرضي وحياتي.. كيف أذاقهم الله عذاب الحريق، وجعَل بيننا وبينهم فرقانا وغادرهم كالغريق؟ وكذلك جعل لكل عدو نصيبا من الذلة، ذلك بما عصوا أمر ربهم وقاموا للمقابلة. وعرض عليهم الآيات كالقسطاس المستقيم، والمعيار القويم، فأعرضوا عنها كالضنين اللئيم، فسوف يعلمون إذا رجعوا إلى الله العليم. وليس

بحاجة أن نكتب ههنا تلك الآيات، فنكتفي بآيات ظهرت في هذه السنوات.

فمنها أن الله كان وعدني وعدا أشعتُه في كتابي "البراهين"، وقد مضت عليه مدّةٌ أزيدَ من عشرين، وكان خلاصة ما وعد أنــه لا يذَرني فردا كما كنت في ذلك الحين، ويأتي بأفواج من المصدقين المخلصين. ولا يتركني وحيدًا طريدًا كمثل الكاذبين المفترين، بل يجمع على بابي جنودا من الخادمين. يأتون بأموال وتحائف من ديار بعيدة، ويبلغ عِدّهم إلى حدّ لم يُعْطَ عِلمَه المتفرسون من الأغيــار والمحبّين، ولم يُرَ مثله في سنين. ولم يكن إذ ذاك لديّ محفــل ولا احتفال، وما كان يجيء لِهَوَى ملاقاتي رجل ولا رجال، بل كنت كمجهول لا يُعرَف، ونكرةٍ لا تتعرف. وكنت مُذْ فتحتُ عــيني وفجرتُ عيني أُحِبُّ الزاوية، لأروِّي النفسَ بماء المعارف وأنجي من العطش هذه الراويةَ. فمضى عليّ دهر في هذه الخلوة لا يعــرفني أحد من الخواصّ ولا من العامّة. وكنت في هذا الخمــول، حــتى تجلّى عليّ ربي وبشّرني بالقبول، وقال: "أَرُدّ إليــك كــثيرا مــن الورى، بعد ما كفّروك وصاروا من العدا، لا مبدِّلَ لكلماتــه ولا رادّ لما قضى". وأُفردتُ إلى مدة قدّره الله لي من الحكمة، وغلَــب العدا وأشاعوا فتاوى تكفيري في الأسواق والأزقّــة. ثم أُلقِــيَ في

رُوعي، فأشعتُ أن وقت النصر أتى، وجاء أوان الزهر وانجــاب الثلوج من الزُّبى، وأشعتُ أن آية الله تظهَر إلى ثلاث سنين، وأُنصَرُ بنصر عجيب من رب العالمين، وإنْ لم أُنصَرْ ولم تظهر آية فلست من المرسلين.

فلما سلَخْنا رمضان، وتمّ ميقات ربنا الرحمن نظرنا إلى تلــك الزمان، فإذا آيات أُلْحِقَ بعضُها بالبعض كَدُرَرٍ ومرجان، فشكرنا ربنا على هذا الإحسان، وكيف نؤدّي حق شكره ومن أين يــأتي قوة البيان؟ طوبى لصبحٍ جاء بفتح عظيم، وحبّذا يومٌ سوَّد وجــهَ عدو لئيم. إنا ابتسمنا بابتسام ثغر الصباح، وبشَّرنا ضوؤُه بانتشار الجناح، وظهرت الآيات وأقام الله الدليل، وكشف الحقيقة وطوى القال والقيل، وكفى الله مخلوقَه سيلَ الفتن ومَعرّتَــه، وردَّ عنــهم مضرّتَه. وكنت أُقيّدُ لحظي بآيةِ كثرة الجمع، وأُرهِفُ أذني لوقت هذا السمع، وأستطلع منه كمثل عَطاشى من الماء، ومظلمين مــن الضياء، حتى وصلني الأخبار من الأطــراف والأنحــاء القريبــة والبعيدة، وتبين أن جماعتنا زادت على مائة ألف في هذه الأعــوام الثلاثة، مع أنها كانت زهاء ثلاث مائة في الأيام السابقة، بــل لم يكن أحد معي في يوم أشعت هذا النبأ في "البراهين الأحمديــة". فخررت ساجدا للحضرة، وفاضت عيني برؤية هذه الآيــة. ووالله

جاءني فوج بعد فوج في هذه السنوات، وكدتُ أن أسأم من كثرتهم لولا أُمرتُ من رب الكائنات.

وكم من مُعادِيّ جاءني وهم يتنصّلون من هفوتهم، ويتندمون على فَوهتهم. وكم من غالٍ انتهَوا عن جنون ومجونٍ، وتابوا وصاروا كدُرٍّ مكنون. والذين كانوا أكثروا اللغط، وتركوا الصواب واختاروا الغلط، أراهم الآن يبكون في حجراتهم، ويبلّون أرض سجداتهم، وأبكي لبكاء عينيهم، كما كنت أبكي عليهم. دخل الله في قلوبهم، ونجاهم من ذنوبهم، واستخلص صياصيَهم، ومَلَكَ نواصيَهم. ونظر الله إليهم ووجدهم قائمين على الصالحات، فجعلهم أبرياء من التبعات. كذلك أرى جذبة سماوية في قوتها، وجبروت الله في شوكتها. وكل يوم يُقتاد العاصي، ويُستدنى القاصي. وأرى حزبي قد وضح لهم الحق كافترار ثغر الضوء، وغمرهم الله بنواله بعد البَوء. فأي شيء خلّصهم من النعاس، وكانوا لا يمتنعون بالفاس، وكانوا لا يعبأون بإلماعي، ولا يفكّرون في أمري بل يعافون بَعاعي، فجذبتْ بعضَهم الرؤيا الصالحة، وبعضَهم الأدلّةُ القطعية. كذلك صرت اليوم راعيَ أقاطيع، وكل سعيد آتاني القلب المطيع.

وإن كنتَ استولى عليك الريب، واشتبه عليك الغيب، وتعجبتَ كيف اجتمع هذا الجمع في أمد يسير، فقد نهضتَ لإنكار أمر شهير، ولا يخفى أمرنا هذا على صغير وكبير. وقد سمعتَ أني أشعتُ هذا النبأ في زمن كنت لا يعرفني أحد ولا أعرف أحدًا، فاتق الله واترُكْ وَبَدًا. وإن كنتَ في ريب من زمن كتابي "البراهين"، فاسألْ أهل قريتي هذه واسأل من شئت من المطلعين. وإن كنت في شكّ من عِدّة جمعٍ جُمعوا في هذه الأعوام الثلاثة، فاسأل الحكومة ما عندها عِدّةُ جماعتنا قبل هذه السنة الجارية، ثم خُذْ منا ثبوت هذه السنة المباركة، التي سبقت كل سِنٍّ من السنين الماضية على طريق خرق العادة.

وإن كنت صاحب دهاء.. لا دودةَ عناد وإباء، فلا يعسر عليك فهمُ هذه الآية، بل تستيقنها كل الإيقان وتمتنع من الغواية. إن شهد لأمر عدلانِ من المسلمين، فيتحقق صدقه عند المتفقهين، فما بال أمر يشهد له ألوف من المسلمين؟ ولا بد لهم أن يشهدوا إن كانوا متقين. وإن شئتم فاسألوا أبا السعيد* الذي هو من أئمّتكم، بل من أجلّ الأفراد من فئتكم، وقد كتب تقريظا على كتابي

* *هو الشيخ محمد حسين البطالوي. (الناشر)*

"البراهين"، وكان يوافيني في ذلك الحين. فاسألوه كم من جماعة كانت هي في ذلك الزمان، وإن تستضعفوا شهادته من غير البرهان، فاسألوا كل من هو موجود في قريتي وما لحق بها من البلدان. ووالله ما كنت في زمن تأليفه إلا كفَتيل، أو كخاملٍ ذليل، وكنت لا يعرفني إلا قليل من سكان القرية، فضلا عن أن أوقَّر في أعين طوائف العلماء وأهل الثروة والعزة. بل ما كنت شيئا مذكورا، وكنت أشابه متروكا مدحورا. وإن هذا أجلَى البديهات، فحقِّقوا كيفما شئتم يا ذوي الحصاة. وسمعتم أن الله أوحى إلي في ذلك الزمان أنه لا يتركني فردا، ويجهّز لي فوجا من الخلان. فأنجزَ وعده في هذه السنوات الثلاث، وأحيا ألوفا على يدي وبعث من الأجداث. فالأمر الذي لم يحصل لنا في عشرين سنة، ثم حصل في ثلاثة، بعد ما جعلناه مناط صدقنا بحلفة، فلا شك أنه أمر خارق العادة، وآية عظيمة من حضرة العزة.

وإن كنتم في شك من هذه الآية، فأتوا بمثلها من القرون القديمة أو الجديدة، وأخرِجوا لنا ما عندكم من المثال، في هذا النصر من الله ذي الجلال. ولكن عليكم أن تأخذوا نفوسكم بهذا الالتزام، أن لا تخرجوا من مماثلة المقام. وأرُوني رجلا وعد كمثلي على بناء الوحي من الحضرة، في أيام الغربة والوحدة، ثم كذّبه العدا ونهضوا

للمقابلة، وجهدوا جهدهم لإعدامه بكل نوع من الحيلة، و لم يكن الزحام يَسفر عنه في حين من الأحيان، و لم يبق مكيدة إلا واستعملوها كالسيف والسنان، ومع ذلك بلغت جماعته من نفس واحدة إلى مائة ألف وانتشرت في البلدان. وإني كُفِّرتُ مرة من أقلام القضاة، وأخرى سِقْتُ إلى المحاكمات، ثم ما كان مآل أمرنا إلا الفتح وزيادة الجماعة مِن فرد واحد إلى مائة ألف أو أكثر من هذه العِدّة. فأرُوني كمثلها إن كنتم تحسبونها تحت القدرة الإنسانية. ووالله إني أعطيكم ألفا من الدراهم المروّجة، صلةً مني عند غلبتكم في هذه المقابلة، وهذا وعد مني بالحلفة. وإن لم تفعلوا.. ولن تفعلوا.. فليس لكم إلا صلة اللعنة، إلى يوم القيامة. أتنكرون آيات الله بغير حق، ثم لا تأتون بمثلها وتسقطون على مكانتكم كالجيفة؟ ويل لكم ولهذه العادة!

ومن آياتي التي ظهرت في هذه السنوات، هو أني أشعت قبل الوقت أن الطاعون ينتشر في جميع الجهات، ولا يبقى خِطّة من هذه الخِطط المبتلاة بالآفات، إلا ويدخلها كالغضبان، ويعيث فيها كالسّرحان. وقلت: قد كُشف عليّ من ربي سرٌّ مكنون، وهو أن أرضا من أرضين لا تخلو من شجرة الطاعون وثمرة المنون. "**الأَمْرَاضُ تُشاعُ وَالنُّفُوسُ تُضاعُ**". ذلك بأن الله غضب غضبًا

شديدًا، بما فسَق الناس ونسوا ربًّا وحيدًا. فجهّز الله جيشَ هـذا الداء، ليذيق الناس ما اكتسبوا من أنواع الجريمة والفحشاء. فانتشر الطاعون بعد ذلك في البلاد، وجعـل ذوي الأرواح كالجمـاد، ودخَل مُلْكَنا هذا وتَدَيَّرَه بقعةً، وتَخَيَّرَ الإماتةَ حرفةً، فإن شـئت فاقرأ ما أشعتُ في جميع هذه البلاد، ثم اسـتحيِ واتـق الله رب العباد.

ومن آياتي التي ظهرت في هذه المدة، موت* رجال عـادَوني وآذوني وعزَوني إلى الكفَرة، وسبّوني على المنـابر وجـرّوني إلى الحكومة. فاعلم أن الله كان خاطبني وقال: "**يا أحمدي أنت مرادي ومعي. أنت وجيهٌ في حضرتي. اخترتُك لنفسي وسرُّك سرّي. وأنت معي وأنا معك. وأنت مني بمنـزلةٍ لا يعلمها الخلق. إذا غضـبتَ غضبتُ، وكلّ ما أحببتَ أحببتُ. إني مُهينٌ من أراد إهانتـك، وإني معينٌ من أراد إعانتك. إني أنا الصاعقة. تُخرَج الصدور إلى القبور. إنا تَجالَدْنا فانقطع العدو وأسبابه**".

ثم بعد ذلك آذاني رجل بغير حق اسمه "محمد بخش" وجرّني إلى

* **الحاشية**: وكان منهم رجل مسمى برسل بابا الأمرتسري، وقد أشعت قبل موته في "الإعجاز الأحمدي" أنه يموت بعض علماء تلك البلدة من الطاعون، فمات بعده رسل بابا في أمرتسر، وإنه آية ظهرت في هذه السنوات. ففكروا يا ذوي الحصاة. منه

الحكومة، فصار لوحي ربي.. أعني "تجالَدْنا"..كالدّرِيّــة، ومــات بالطاعون وانقطع خيط حياته بالسرعة، وكنتُ أشعتُ هذا الوحي في حياته وأنبأته به فما بالَى ومضى بالسخرة.

ثم بعد ذلك قام رجل لإيذائي اسمه "محمد حسن فيضي"، وكان أعدى أعدائي، وسبني وشتمني وسعى لإفنائي وإخزائي، ولعــنني حتى لعنه ربي وردّ إليه ما عزا إلى نفسي. فما لبث بعده إلا قلــيلا من الأيام، حتى رأى وجه الحِمام.

وكنت كتبت في كتابي "الإعجاز"، ملهَمًا من الله الذي يجيب المضطرّ عند الارتماز: "من قام للجواب وتنمَّرَ، فسوف يرى أنــه تندَّمَ وتدمَّرَ". فجعل الفيضي نفسه دريّةَ كــلِّ وحــي ذكــرتُ، وغرضَ كلِّ إلهام إليه أشرتُ، حتى أسكته الموت من قاله وقيلــه، وردّه إلى سبيله.

وكذلك صار "نذير حسين الدهلوي" دريّةَ وحي الله: "تخــرج الصدور إلى القبور"، فإنه كان أوّل من كفّرني وآذاني وفــرّ مــن النور. وكانت سنة وفاته: "ماتَ ضالٌّ هائمــا" (١٣٢٠هــــ) بحساب الجُمل، ومات ناقصا و لم يُصِبْ حظًّا من الكُمّل.

ومن آياتي شهرة اسمي بالإكرام والتكرمة، في هذه السنوات الموعودة. وإن الله كان خاطبني وبشرني بإكرامي وقبولي في زمن البأس، وقال: "**أنت مني بمنزلة توحيدي وتفريدي، فحان أن تُعان وتُعرَف بين الناس**"، وقال: "**يحمدك الله مِن عرشه**"، وبشّرني بحمد الأناس. وبعد ذلك سعى العدا كل السعي ليُعدِموني ويُلحقوني بالغبراء، ووقع أمري في خطر عظيم من الأعداء، فأيّدني ربي في هذه السنوات المباركة، وشهّر اسمي إلى الديار البعيدة. وهذا أمر لا ينكره أحد إلا الذي ينكر النهار مع رؤيته الأشعة الساطعة.

ومن آياتي كتبٌ ألّفتها في العربية، في تلك المدة المشتهرة، وجعلها الله إعجازا لي إتماما للحجة. وأولها "إعجاز المسيح" ثم بعد ذلك "الهدى"، ثم "الإعجاز الأحمدي" وهو معجزة عظمى. وكنت فرضت للمخالفين صلةَ عشرة آلاف، إن يأتوا كمثل "الإعجاز الأحمدي" في عشرين يوما من غير إخلاف. فما بارز أحد للجواب، كأنهم بُكْمٌ أو من الدواب. ومع تلك الصلة، لعَنتُ الصامتين الساكتين المتوارين في الحجاب، وأحفظتُهم به لكي يتحركوا لجواب الكتاب، فتوارَوا في حجراتهم، وما نعلم ما صنع الله بقلوبهم، مع إطماع مني وإعناتهم.

ومن آياتي ما أنبأني العليم الحكيم، في أمر رجل لئيم وبهتانه العظيم، وأوحى إلي أنه يريد أن يتخطف عِرضك، ثم يجعل نفسه غرضك. وأراني فيه رؤيا ثلاث مرات، وأراني أن العدو أعدَّ لذلك ثلاثة حماما* لتوهين وإعنات. ورأيت كأني أُحضرتُ محاكمة كالمأخوذين، ورأيت أن آخر أمري نجاة بفضل رب العالمين، ولو بعد حين. وبُشِّرتُ أن البلاء يرد على عدوي الكذاب المهين. فأشعت كل ما رأيت وأُلهمت قبل ظهوره في جريدة يسمى "الحَكَم"، وفي جريدة أخرى يسمى "البدر"، ثم قعدت كالمنتظرين.

وما مرّ على ما رأيت إلا سنة فإذا ظهَر قدر الله على يد عدو مبين اسمه "كرم الدين". وإنه هو الذي رغِب لإحراقي في نار تُضرَم، وضِرارٍ يُعزَم، وأراد أن يسلب أمننا، وطمع في عرضنا، لنُعدَم كل العدم. وأراد أن يجعل نهارنا أغسى من ليلة داجيةِ الظُلَم، فاحمةِ اللمم. فنَحَتَ من عنده استغاثة، وأعدَّ لأفراس الوكالة أثاثة، وجُمِعت الأحزاب وشُمِّرَ الثياب، ليرمي كلهم من قوسٍ واحدٍ السهامَ، ونسوا القدير العادل العالم المقسط الذي لا يجهل أوصاف الإنصاف، ومن ذا الذي يرضع عنده أحلافَ

* *هكذا ورد في الأصل سهوا، وصحح في طبعة "الخزائن": "حُماة". (الناشر)*

الخِلاف؟ وإنه هو معنا فكيف نتأذى من شرير؟ وكيف يولّي عيشٌ نضير؟ وقد بُشّرنا أنا لن نقتحم مَخوفة، ولن نجوب تَنوفة، وننتظر وعد رب العباد، والله لا يخلف الميعاد. وقد ظهر بعض أنبائه تعالى من أجزاء هذه القضية، فيظهر بقيّتُها كما وعد من غير الشك والشبهة.

هذا حقيقة إنبائي الذي لم تستطيعوا عليه صبرا، وكتب الله ليغلب رسله ولو يمكر العدا مكرا. وليس إنكاركم إلا من شِقْوتكم، فيا أسفا على جهلكم وغباوتكم! أردنا أن نعطف عليكم فغظِتم، ورُمْنا أن ننبِط فغضْتم.

ثم بعد ذلك نكتب جواب ما أشعتَ، وظلمتَ نفسك والوقت أضعتَ. أما ما أنكرتَ في كتابك بلاغة قصيدتي، وما أكلتَ عصيدتي، فلا أعلم سببه إلا جهلك وغباوتك وتعصّبك ودناءتك.

أيها الجهول! قُمْ وتصفَّحْ دواوين الشعراء، ليظهر لك منهاج الأدب والأدباء. أتُغلّط صحيحا وتظن الحَسَن قبيحا، وتأكل النجاسة وتعاف النفاسة؟ ليس في جُعْبتك منزَع، فظهر لك في التزرّي مطمع، وكذلك جرت عادة السفهاء، أنهم يخفون جهلهم بالازدراء. ويل لك! ما نظرتَ إلى غزارة المعاني العالية، ولا إلى

لطافة الألفاظ الغالية، واستقريتَ القَذَرَ كالأَذِبّة. ما فكرت في حسن أساليب الكلام، ولا في المنطق ونظامه التام.

أيها الغبي! علِمتُ من هذا أنك ما ذقت شيئا من اللسان، ولا تعلم ما حسن البيان، ونزَوت كالسَّرْحان قبل الفهم والعرفان. أبهذا تُبارينا في الميدان وتُبارزنا كالفتيان؟ أتتّكئ على "الأصغر" الذي كتب منه "الجعفرُ" إليك، وكنتَ قد فررتَ من هذه القرية مع لعن نزل عليك؟ فاعلم أنهم يكذبون وليسوا رجال المصارعة، ولا قِبَلَ لأحد في هذه المناضلة. دَعْ تصلّفك يا مسكين، فإنك لست من الرجال، ولو كنت شيئا لما فررت من الاحتيال.

ثم اعلم أني ما رُضْتُ صعابَ الأدب بالمشقّة والتعب، بل هذه موهبة من ربي ونلت منه سِمْطَ الدررِ النُّخَب. هذا أمري ولكنك إن بارزتني فعليك خبيئُك يتجلى، وسوف أريك بأي علوم تتجلى*. إن تغليطك أحقّ بالتغليط، وليس فيه دون السلاطة، لا كبيان السليط. وما جئتَ قريتي هذه إلا لتخدع الناس، وتشيع الوسواس، وما كان إتيانك إلا كحِجَّةٍ لا تُقضَى مناسكها، ولا تحصل بركاتها. ولما عثرتُ على ما احتلتَ، وعلى ما بادرتَ إلى

* هكذا ورد في الأصل، وصحح في طبعة "الخزائن": "تتحلى". (الناشر)

وَكْرك وأجفلتَ، فاضت عيني على شقوتك وخيبتك عند رجعتك. خرجتَ كما دخلتَ، وذهبتَ كما حللتَ.

ووالله لو كنتَ وافيتني لواسيتك ولو عاديتني. وإنا لا نضمر حقد أحد من العدا، وإذا جاءنا عدو فالغِلّ خلا. ولذلك ساءني لِمَ تبوّأتَ منزل المشركين وما عُفْتَ وما اخترتَ طريق المتقين. إنما المشركون نجس وهم أعداؤنا وأعداء رسولنا المصطفى، بل أعدى العدا. أتظنّون المشركين أقرب إليكم؟ عجبتُ من نُهاكم! أتظنون فينا ظن السوء؟ فذلكم ظنُّكم الذي أرداكم. لا تطلب البحث إلا كمقامرة، ولا تبغي الجدال إلا كمصارعة، فأين صحة النية كالأتقياء، وأين التدبر كالصلحاء؟ ترون آيات الله ثم تنكرونها، وتؤانسون شمس الحق ثم تكذّبونها. لا توافونني بصحة النية، فلا تنجون من الوسوسة الشيطانية. وتشيعون كلمات يأخذ سعيدا حياءٌ منها، وتنسبون إلي أشياء وأنا بريء منها. وتؤذونني بألسنكم في كل حين من الأحيان، ونسأل الله أن يلقي علينا جميل الصبر والسلوان. ونصبر على إيذائكم حتى ينزل الله غيثُ رأفته، ويدركنا بلطفه ورحمته. وكيف نقاومكم مع أتباعنا القلائل، فنشكو إلى الله كالمضطر السائل. كل من يؤذيني منكم بأنواع البهتان والتهمة، يحسب أنه عمل عملا يُدخله في الجنة، وكل من

يسبّني ويكفّرني يظن أنه قطعيّةُ المغفرةِ فيا رَبِّ أَجِبْهم من السماء، وليس لنا من دونك عند هذه الفتنة. رب إن كنتَ وجدتني اخترتُ طريقا غير طريق الفلاح، فلا تتركني من ليلتي هذه إلى الصباح.

أيها المعادون! ليس بناء نزاعكم إلا على مسألة واحدة، فلم لا تطمئنون بآيات شاهدة؟ وإننا تمسَّكْنا في أمر وفاة عيسى بالقرآن، وما تمسّكتم إلا بالهذيان. ولو فرضنا على سبيل التنزل أن المقام محتمل للمعنيين، فالمعنى الذي جاء به الحَكَمُ أحقُّ بالقبول عند ذوي العينين، ودون ذلك جرأة على الله وخروج إلى الكذب والمَين. وقد يوجد استعارات في بعض الأنباء، فلا يغُرَّنَّكم ظاهر بعض الأحاديث بفرض صحتها يا ذوي الدهاء. وأي نظير ألجأَكم إلى المعنى الذي تختارونه، ونهجٍ تؤثرونه؟ فليس والله عندكم إلا رسم وعادة ورثتموها من الآباء، وهذا هو سبب الإباء.

وزعمت أنك تستطيع أن تكتب تفسير بعض سُور القرآن قاعدًا بحذائي، وتُملي كإملائي. وما تريد من هذا الهذيان إلا لتشبّه أمرَ إعجازي على جهلاء الزمان. فإن كنت تقدر على هذا النضال، وإبطالِ المعجزة التي أعطيت من الله ذي الجلال، فنقبَل

دعوتك وجلالتك، لكن بشرط أن يقبل علماؤك الأكابر وكالتك، بأن يحسبوا هزيمةَ أنفسهم هزيمتَك. فلا بد لك أن تأتي بعشرين رقعة مكتوبة مشتملة على ذلك الإقرار، من عشرين علمائك الأكابر المشهورين في الديار. وإن كنت ليس هذا الأمر في قدرتك، فاحلِفْ بالطلاق الثلاث على امرأتك، على أنك إن لم تقدر على إملاء تفسير كمثلي في المعارف والفصاحة والبلاغة، فتبايعني على مكانك من غير نوع من الحيلة، وإلا فلا نكترث بك ولا نبالي، وقد ثقّبْناك من قبلُ بالعوالي. وكيف نختارك وتقول بلسانك "أنا أعلم"، ويقول الآخر منكم "أنا أعلم"، فكيف نؤثرك على غيرك إلا بعد أن تقضى هذا* التناقشَ، وتدفع هذا التهارش؟ وإن عمامة الفضل كالوديعة، فمن غلب سلب، ومن رُعِبَ نُهب. وإن الفضيلة ليس كالشيء المجّان، ولا يتأتى إلا بالبرهان، فمن أشرَقَ تِبْرُه، سُلِّمَ حِبْرُه وسِبْرُه.

وإن وُكِّلتَ من العلماء، وبارزتَني في العراء، ثم غلبتَ في المعارف كالعرفاء، وفي البلاغة كالأدباء، أُعْطِك عطاء جزيلا، لا شيئا قليلا. ولكني عجبتُ كل العجب من تصلّفك، بعد فرارك

---

* *ورد في الأصل "هذه" سهوًا، بينما صُحِّح في طبعة "الخزائن": "هذا". (الناشر)*

وتخلّفك. وقد ألفتُ لك كتابي "الإعجاز"، فتواريتَ وما أتيت البِراز. فكيف تهذي الآن وتذكر الميدان؟ أنسيت الإفحام الإمسيّ أو جعلته في المنسيّ؟ لعلك تسُرّ به زمعَ الناس ليحسبوك منوّرا كالنبراس. أأنت تعارضني أيها المسكين؟ ولا يكذب إلا اللعين. وإن أكل نجاسة الدَقاريرِ أقبح من تمشُّش الخنزير. ويعلم قومك أنك جهول، ولا تقرّ بعلمك فحول. وإن كنت تدّعي من صدق البال، ولست كالمتصلّف الدجال، فأت بشهادة على ما أحرزت من الكمال. فأيسَرُ الطرق وأسهلها أن تكتب كمثل هذه الرسالة، إن كنت صادقا ولست كالجَلّالةِ. فإن كنت أتيت بمثلها في عشرين يوما في المعارف والبلاغة والبراعة، فوالله أعطيك مائة درهم في الساعة، ومع ذلك تبطل معجزتي وكأني أموت من يديك، وتنثال الصلة عليك، ولا يبقى لي بعده حجّة وتتّضح محجّة، ويُقضى الأمر وتتّحد الزمر. وكل ذلك يُنسَب إليك وإلى كمالك، وترتوي القلوبُ من زلالك، ويرتفع الاختلاف من بين الأمّة، فقُمْ إن كنت شيئا وَأْتِ بمثلها في هذه المدة، لعلك تتدارك به ما ذقتَ من لعنة، ويُعقبك الله عن ذلّةٍ رأيتَها بعزةٍ. فإن كنت كريمَ النَّجْر طيِّبَ الشجر، فلا تعرض عن هذه المقابلة التي هي عظيم الأجر. وعند ذلك يتراءى الحق كحوت تسبَح في الرَّضْراض، ويفرغ الصادق

من قتل النَّضْناض. هذا هو السبيل، وبعد ذلك نستــريح ونَقيل. وكل ما تتصلّف من دونه، فهو صوت كائد من مجونه، فأراه أنكَرَ من صوت حمار، وأضعَفَ من خَطْوِ حُوار.

وقلتَ إني فسّرتُ القرآن، فاتّقِ الله ودَعِ الهذيان. أيها المسكين! ما سرَوتَ عن نفسك جلبابَ النوم، وعدوتَ إلى إيقاظ القـــوم. لستَ إلا كالجنين في الظلمات الثلاث ومن المحجوبين، فما لك أن تتكلم كالعارفين؟ وإنك تتقصَّى الزخارف، فما تدري المعـــارف. أيها الغوي! خُذْ حظا من الطبيعة السعيدة، ولا تحل حَولَ المكيدة، فإن المكر يخزي الماكرين، وإن الله مع الصادقين. اعلم أنك تخفـــي شيئا في قلبك وتبدي شيئا آخر، وهذا هو من سِـــير المنـــافقين. ولست رجلَ هذا الميدان ثم تـــدّعي كالمتصـــلفين. وإن بـــارزتني كالكُماة، تجدني مثقِّبَك بالقناة، وإن تغلِبْ أُغْنِـــك بالصِّـــلات، وأُنْجِك في معاشك من المشكلات. وإن عزمت على أن تكتـــب كمثل هذه الرسالة، فأعطيك كما وعدت من الجِعالة، وإن شئت أرسل إليك خُمْسَ هذا الوعد قبـــل إيفائـــك، ليكـــون محرِّكـــا لأهوائك. فعليك أن تأخذ المنقود، وتنتظر الموعود، وهذا خير لك من حيل أخرى، وأقرب للتقوى، والسلام على من اتبع الهدى.

أيها الناس.. لم لا تعرفون الذي جاءكم من الرحمن، وقد جُمِعَ لكم أول المائة وآخر الزمان؟ الشمس والقمر خُسِفا في رمضـــان، وظهرت الدابّة التي تكلّم الناس، وهذه هي التي أنبأ بها القرآن، فما لكم لا تعرفون من جاءكم من الرحمن؟ وســـتعرفونني، وأفـــوض أمري إلى الله وعليه التكلان.

الحمد لله الذي وهب لي على الكبر أربعة من البـــنين، وأنجـــز وعده من الإحسان، وبشّرني بخامس في حين من الأحيان. وهـــذه كلها آياتٌ من ربي يا أهل العدوان. سبحانه وتعالى عما تظنون، فاتقوه وقد نزل وهو غضبان.